

قَلْبِي سَائِلٌ

مِنْ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ



الدكتور فاضل صالح السامراني

دار البزك

قَدَسَاسَاتُ

مِنَ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ

● الموضوع: علوم القرآن
العنوان: قبسات من البيان القرآني
التأليف: الدكتور فاضل السامرائي

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ISBN 978-614-415-265-2

© حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع و التصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

ISBN 978-614-415-265-2



9 786144 152652

● الطباعة: رامما برس - بيروت - التجليد: شركة فؤاد البعيتو للتجليد - بيروت

● الورق: أبيض - ألوان الطباعة: لوانان - التجليد: كرتونية

● القياس: 24x17 - عدد الصفحات: 296 - الوزن: 560 غ

دمشق - سوريا - ص.ب. 311

حلبوني - جادة ابن مسينا - بناء الجابي - حالة المبيعات تلافكس، 2225877 - 2228450
الإدارة تلافكس، 2243502 - 2258541

بيروت - لبنان - ص.ب. 113/6318

برج أبي حيدر - خلف دهبوس الأصلي - بناء الصنيفة - تلافكس، 01 817857 - جوال، 03 204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

قَلْبِي سَكَنَ فِي قَوْلِهِ

مِنْ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ

تَأَلَّفَ
الدُّكْتُورُ فَاضِلُ صَاحِبُ السَّامَرِيِّ

دَارُ الْبَنَاتِ كَثِيرٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

[ص: ٢٩]

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

هذا كتاب آخر في شيء من البيان القرآني الذي لا تنقضي عجائبه . وهو على نمط ما كتبت في قسم من السور والآيات القرآنية المباركة ، حاولت فيه أن أبين جانباً من الأمور البيانية في اختيارات من آي القرآن وسوره ، لعل الله ينفع به طالب علم ، أو ناظراً في كتاب الله ، أو متأملاً في آيه ، فيفتح قلباً مقفلاً ، أو ينير مصباحاً في طريقه ، فتتألنا منه دعوة مباركة ترجح كفة الميزان عنده سبحانه ، وتحفظنا من الزلل عند الصراط .

والله المستعان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د. فاضل صالح السامرائي

من سورة البقرة

آيات الصوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰنَكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٦] .

وقعت آيات الصوم بين آيات الشدة وذكر الصبر وما يقتضي الصبر :

فقد جاء قبلها قوله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] بالقطع ، والصوم نصف الصبر ، والصبر نصف الإيمان .
وتقدمها أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ [الآية: ١٧٨] .

وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠] .

وجاء بعدها آيات القتال ، وهي قوله: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ... وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُوهُمْ... وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٣] .

ذلك أن كلاً من الصوم والقتال من المشاق ، وأن كلاً منهما يقتضي الصبر .

ثم ذكر بعدها آيات الحج ؛ لأن الحج بعد الصيام ، وبعد شهر رمضان .

قال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ... الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٦-١٩٧] .
ويستمر في ذلك .

وذكر المريض في الحج ، كما ذكر المريض في الصيام وذكر فديته ، ومن الفدية فيه الصيام ، فقال: ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ ءَازٌ مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة: ١٩٦] .

جاء في (البحر المحيط): ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الصِّيَامُ ﴿ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه أخبر تعالى أولاً بكتب القصاص ، وهو إتلاف النفوس ، وهو من أشق التكاليف ، فيجب على القاتل إسلام نفسه للقتل .

ثم أخبر ثانياً بكتب الوصية ، وهو إخراج المال الذي هو عدل الروح .

ثم انتقل ثالثاً إلى كتب الصيام ، وهو منهك للبدن ، مضعف له ، مانع وقاطع ما ألفه الإنسان من الغذاء بالنهار .

فابتدأ بالأشق ، ثم بالأشق بعده ، ثم بالشاق . فهذا انتقال فيما كتبه الله على عباده في هذه الآية .

وكان فيما قبل ذلك قد ذكر أركان الإسلام ثلاثة : الإيمان والصلاة والزكاة ، فأتى بهذا الركن الرابع وهو الصوم^(١) .

* * *

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿١٨٧﴾

* * *

١ - ناداهم بقوله : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ولم يقل : (قل يا أيها الذين آمنوا) .

لأنه سبحانه ناداهم مباشرة لا بالواسطة ؛ لأهمية ما ناداهم إليه .

٢ - وقال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ ، واستعمال الفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ مع عليكم فيه شدة وإلزام ومشقة ، وما يجب عليهم ، وما يستكره من الأمور بخلاف (كُتِبَ لكم) .

فمن معاني (كتب) ألزم وأوجب وفرض .

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٧٨] .
وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة: ١٨٠] .

وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

وقوله: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ... ﴾ [الحشر: ٣] .

بخلاف قوله: (كتب لكم) فإن فيه ما هو خير لهم ، أوليس بمنزلة (كتب عليكم) وذلك نحو قوله:

﴿ وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ [التوبة: ١٢٠] .

وقوله: ﴿ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ [النساء: ١٢٧] .

وقوله: ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٢١] .

وقوله: ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

٣ - وقال: (كُتِبَ) بالبناء للمجهول ، لأن فيه مشقة ، بخلاف ما فيه اليسر والرحمة ، فإنه يسنده إلى نفسه كقوله تعالى: ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

وقوله: ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾

[المجادلة: ٢٢].

وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

جاء في (البحر المحيط): «وبناء (كتب) للمفعول في هذه المكتوبات الثلاثة وحذف الفاعل للعلم به ، إذ هو الله تعالى ، لأنها مشاق صعبة على المكلف ، فناسب أن لا تنسب إلى الله تعالى ، وإن كان الله تعالى هو الذي كتبها. وحين يكون المكتوب للمكلف فيه راحة واستبشار يبني الفعل للفاعل ، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ و ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾.

وهذا من لطيف علم البيان.

وأما بناء الفعل للفاعل في قوله: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾

فمناسب لاستعصاء اليهود ، وكثرة مخالقاتهم لأنبيائهم ، بخلاف هذه

الامة المحمدية.

ففرق بين الخطابين لافتراق المخاطبين»^(١).

٤ - قال: (الصيام) ولم يقل: (الصوم) ذلك أنه لم يستعمل للعبادة المعروفة إلا الصيام.

٥ - وقال: ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ وهذا مما يدل على علو هذه العبادة وعظم شأنها ، وعلى الترغيب في هذه العبادة ، ولأن المشاق إذا عمت هانت^(١).

٦ - ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي: تتقون المحرمات ، وتحذرون المعاصي ، لأن الصوم يكسر الشهوة ويهذبها. قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

ولعلكم تتقون المفطرات والإخلال بأدائه .

ولتصلوا إلى منزلة التقوى^(٢) .

وقد أطلق الفعل ليشمل كل ذلك .

وقد تكرر ذكر التقوى والملتقين في سياق هذه الآيات :

فقد قال: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

وقال: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:

١٧٩] .

وقال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي ٢/ ٢٣٩ .

(٢) انظر: روح المعاني ٢/ ٥٧ .

لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١٨٠﴾ .

وقال في آية الصوم هذه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

وقال في آية الصوم التي تلي هذه الآية: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

وقال بعد ذلك: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] .

وغير ذلك .

وهي مناسبة لقوله تعالى في أول السورة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] .

وقد ورد لفظ التقوى ومشتقاتها في سورة البقرة (٣٦) ستاً وثلاثين مرة .

* * *

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤] .

* * *

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ .

قال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ولم يقل: (معدودة) تقليلاً لها ، ولتهوينها على الصائم .

وقيل: لأنه كان كذلك. فقد كان ثلاثة أيام في كل شهر ، ثم نسخ ذلك

بصوم شهر رمضان^(١) . وقيل غير ذلك .

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ .

قال : ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ ولم يقل : (مسافراً) ليعم من اشتغل بالسفر ،
قيل : لأنه أباح للمتهيئ للسفر والمستعد له الإفطار .

قيل : بأن انشغل به قبل الفجر .

والبت في الحكم يعود إلى الفقهاء^(٢) .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ .

قيل : (على المطيقين للصيام إن أفطروا فدية) ، وكان ذلك في بدء
الإسلام ، لما أنه قد فرض عليهم الصوم ، وما كانوا متعودين له ، فاشتد
عليهم ، فرخص لهم في الإفطار والفدية .

«وفي البخاري أنه لما نزلت هذه الآية ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ كان
من شاء منا صام ، ومن شاء أفطر ويفتدي . فعل ذلك حتى نزلت الآية التي
بعدها فنسختها ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾» .

وقيل : إن الآية نزلت في الشيخ الكبير الهرم والعجوز الكبيرة الهرمة ،
وقد فسرت الآية على هذا ب (يصومونه جهدهم وطاقاتهم) فيصير المعنى :
وعلى الذين يصومونه مع الشدة والمشقة ، فيشمل الحبلئ والمرضع
أيضاً .

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٣١ .

(٢) انظر : البحر المحيط ٢/ ٣٢ ، نيل الأوطار ٤/ ٢٤٢ (حديث أنس بن مالك) .

وجاز أن تكون الهمزة للسلب ، كأنه سلب طاقته بأن كلف نفسه
المجهود ، فسلب طاقته عند تمامه^(١) .

﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ :

بأن زاد على القدر المذكور ، أو زاد على عدد من يلزمه إطعامه ،
فيطعم مسكينين فصاعداً ، أو جمع بين الإطعام والصوم^(٢) .

﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ :

أيها المطيقون الأصحاء ، أو المرخصون في الإفطار .

وقال : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب^(٣) ،
ولم يقل : (وأن يصوموا خير لهم) لئلا يخص المرضى والمسافرين
والمرخصين .

* * *

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ
الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى
سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ

(١) روح المعاني ٥٩/٢ .

(٢) روح المعاني ٥٩/٢ ، فتح القدير ١٥٨/١ .

(٣) انظر : روح المعاني ٥٩/٢ .

وَلِتُغْمِلُوا الْمِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿البقرة: ١٨٥﴾ .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ .

ذكر الفريضة أولاً وهو قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ .

ثم ذكر الأيام مبهمه فقال: ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ فزال بعض الإبهام .

ثم بينه بقوله ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ ، وعظمه بقوله: ﴿ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ .

﴿ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ .

أي: ابتدئ فيه إنزاله وذلك ليلة القدر ، وقد أنزل جملة إلى السماء الدنيا ، ثم أنزل منجماً إلى الأرض^(١) .

وأنزل في شأنه القرآن^(٢) وهو قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ وقوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ كما أنزل في شأن ليلة القدر . ، ولم يذكر غيره من الشهور في القرآن الكريم .

والمعنيان مرادان .

وقال: ﴿ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ ولم يقل: (أنزلنا فيه القرآن) لأن

(١) انظر: روح المعاني ٦١/٢ ، الكشاف ٢٥٦/١ .

(٢) فتح القدير ١٥٩/١ .

الكلام على الشهر لا على مُنْزله ، ولو قال : (أنزلنا) لكان الكلام على الله سبحانه .

وهذا تعظيم لهذا الشهر .

﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ .

أي : هادياً للناس على الحال .

أو لهداية الناس على المفعول له .

﴿ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ أي : أنزل آيات بينات واضحات

الدلالة .

﴿ وَالْفُرْقَانِ ﴾ الفارق بين الحق والباطل .

فهو أنزل آيات بينات ، و ﴿ مِّنَ ﴾ للبيان ، فهي - أي : الآيات - بينات من الهدى ، وما يفرق بين الحق والباطل بما فيه من الأحكام .

فهو يبين الهدى ويوضح الحق من الباطل ، ويفرق بينهما بما فيه من

الدلائل .

فقوله : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ عام ، أي : أنزل لهداية الناس .

وأنزل آيات بينات من الهدى .

فالهدى الأول عام ، والثاني خاص بكونه خاصاً بالبينات .

وقوله : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي : للناس كافة .

وقوله في أول البقرة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ خاص . ، فهو هدى عام

وخاص .

﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ .

أي : حاضراً غير مسافر^(١) .

﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ .

لم يقل : (ومن كان منكم مريضاً) كما قال في الآية الأولى ؛ لأنه تقدمه قوله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ ﴾ .

قد تقول : هو خاطبهم في الآية الأولى بقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ .

فلم ذكر ﴿ مِنْكُمُ ﴾ ؟

فنقول : لما قال ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فلو قال (فمن كان مريضاً.. .) لظن أنه هنا في حكم الأولين ، وهو بعض مما كتب على الذين من قبلنا وليس علينا .

ولم يقل كما قال في الآية الأولى : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .

لأنه قال ههنا : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ .

وهذا من تمام رأفته ورحمته .

﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ ﴾ .

يحتمل أن يكون المعنى : (ويريد لتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم) فاللام زائدة في مفعول (يريد) للتوكيد .

ويحتمل أن تكون اللام للتعليل ، والعطف على علة مقدرة ، أي :
يريد أموراً أخرى ، ويريد لتكملوا العدة ^(١) ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ
نُرِيّ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

قيل : ليقيم الحجة على قومه ، وقيل : ليستدل به على الصانع
وليكون من الموقنين ^(٢) .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

أي : على ما هداكم وعلى التيسير .

﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ عَلَى مَا هَدَيْنَاكُمْ ﴾ تحتل المصدرية
والموصولة ، أي : على هدايته لكم ، وعلى الذي هداكموه ، أو هداكم
إليه .

* * *

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

* * *

١ - ورود هذه الآية بين آيات الصوم يدل على أن الصوم من دواعي
الإجابة ، فإن الصائم مجاب الدعوة حتى يفطر .

«وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام

(١) انظر : الكشف ٢٥٦/١ وانظر : البحر المحيط ٤٢/٢ - ٤٣ .

(٢) البحر المحيط ١٦٥/٤ .

الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال الفطر ، بل وعند كل فطر . وفي الحديث : للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة .

ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم^(١)

٢ - لقد تكفل الله بالإجابة عن السؤال ولم يكلهم إلى رسول الله ﷺ فقال : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل : (فقل لهم إنه قريب) كما قال سبحانه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

وقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْمَعْفُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٩] .

وقال : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل : (فأنا قريب) لتأكيد قربهِ سبحانه من عباده .

٣ - وتكفل الله بالإجابة إذا دعاه العبد فقال : ﴿ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَاكَ ﴾ ولم يعلق ذلك بالمشيئة فلم يقل : (إن شئت أو شاء ربك) كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ ٥١ ﴾ بَلْ إِلَٰهُهُمُ اللَّهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١] .

وفي الحديث: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ؛ إلا أعطاه الله تبارك وتعالى إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها»^(١) ، ذلك أنه داع في وقت طاعة .

٤ - وقدم الإجابة الدالة على جواب الشرط ، فقال: ﴿ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

ولم يقل: (إذا دعاني أجيبه) للدلالة على قوة الوعد بالإجابة .

٥ - وقال: ﴿ إِذَا دَعَانِ ﴾ ولم يقل: (إن دعان) إشارة إلى أن العبد مطلوب منه أن يكثر من الدعاء ، فإن ﴿ إِذَا ﴾ للمقطوع بحصوله ، أو للكثير الوقوع^(٢) .

وإن الإكثار من الدعاء والإلحاح به مدعاة إلى الإجابة .

٦ - قال: ﴿ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فالدعاء شرط للإجابة ، وهو مطلوب ، بل هو مخ العبادة .

وربنا يغضب إذا لم يُدعَ ، وقد غضب ربنا على أقوام أخذهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾^(١١) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [الأنعام: ٤٢-٤٣] .

(١) البحر المحيط ٤٦/٢ .

(٢) انظر: كتابنا (معاني النحو) ٥٩/٤ وما بعدها (إن) و(إذا) في باب الشرط .

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ﴾ [المؤمنون:

٧٦].

وقال ربنا لنبيه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فأمره بالاستعاذة قولاً بأن ينطق بذلك ولا يكفي الشعور في القلب.

٧- قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ ولم يقل: (أجيب الداعي).

لأن المطلوب هي الدعوة ، وهي ما يريده الداعي وما يبتغيه .

٨- وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ولم يقل: (أجيب دعوتهم إذا دعوني) أو: (فقل لهم إني أجيب دعوتهم إذا دعوني) وذلك بقصد الشمول ، ليشمل كل داع ، ولا يخص السائلين عنه سبحانه ، فشمّل كل داع إلى يوم القيامة .

٩- وقال ﴿عِبَادِي﴾ بالياء ، ولم يقل (عباد) بحذف الياء للدلالة على أنه يجيب عباده كلهم إذا دعوه .

فإن القرآن يستعمل ﴿عِبَادِي﴾ لمن هم أكثر من (عباد) ^(١) .

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ .

أي: فليجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، كما أنني أجيبهم إذا دعوني لحاجتهم ^(٢) .

(١) انظر: كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) (عباد وعبادي) ص ٣١ .

(٢) البحر المحيط ٤٧/٢ .

﴿ وَلِيُؤْمِنُوا بِى ﴾ .

أي: أمر بالثبات والدوام على الإيمان^(١) ، كقوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا ﴾ .

جاء في (نظم الدرر): «ولما أوجب استجابته سبحانه في كل ما دعا إليه ، وكانت الاستجابة بالإيمان أول المراتب وأولها ، وكانت مراتب الإيمان في قوته وضعفه لا تكاد تنتهى ، قال مخاطباً لمن آمن وغيره: ﴿ وَلِيُؤْمِنُوا بِى ﴾ أي: مطلق الإيمان أو حق الإيمان»^(٢) .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

أي: يهتدون لمصالح دينهم ودنياهم^(٣) ، وإصابة خيري الدنيا والآخرة.

لقد سبقت الآية بقوله سبحانه: ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰنٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قيل: ليدل على أن الدعاء يكون بعد الشاء على الله^(٤) وطاعته ، كقوله: ﴿ أَهْدٰنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وقد سبق بالشاء عليه.

* * *

(١) انظر: روح المعاني ٢/ ٦٤ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١/ ٣٤٩ - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

(٣) انظر: روح المعاني ٢/ ٦٤ .

(٤) انظر: البحر المحيط ٢/ ٤٥ .

من سورة ال عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٢١﴾ رَبَّنَا إِنَّا
سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿٢٢﴾ رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ
وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤].

* * *

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴾.

* * *

الخلق : التقدير. والخلق في كلام العرب : ابتداء الشيء على مثال لم
يسبق إليه^(١).

(١) لسان العرب (خلق).

وخلق السموات والأرض: إيجادهما وإنشاؤهما على ما هما عليه .

والخَلْقُ يحتمل المصدر ، أي: الإنشاء والإيجاد ، ويحتمل المخلوق^(١) ، وذلك كما يقال: (هم شر الخلق) و(شرار الخلق الذين تدركهم الساعة وهم أحياء) أي: المخلوقات .

وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحتمل أن في إنشائهما وإيجادهما لآيات .

ويحتمل أن في ذات السموات والأرض وصفاتهما لآيات ، أي: إن في السموات والأرض لآيات .

جاء في (البحر المحيط): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخلقها: إيجادها واختراعها ، أو خلقها وتركيب أجرامها وائتلاف أجزائها ، من قولهم: خَلَقَ فلان حسن ، أي: خلقته وشكله^(٢) .

والآية تدل على الأمرين:

فإن في خلقها وكيفية إيجادها وإنشائها لآيات .

وإن في السموات والأرض أنفسهن لآيات .

والظاهر أن الأمرين مرادان . ولو أراد السموات والأرض تنصيماً لذكرهما من دون ذكر الخلق معهما ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الباقية: ٣] .

(١) انظر: لسان العرب (خلق) .

(٢) البحر المحيط ٤٦٤/١ وانظر: فتح القدير ٦٦/٢ .

فإن في خلق السموات والأرض ، وفي السموات والأرض آيات
لأولي الأبواب .

فإن أولي الأبواب يتفكرون في خلقها وفي ذاتها وما فيها من العجائب
ومظاهر القدرة .

و(اللب) : هو خالص العقل وجوهره ، جاء في (لسان العرب) : «لب
كل شيء ولبابه : خالصه وخياره»^(١) .

وفي (تاج العروس) : «لب الرجل : ما جعل في قلبه من العقل ، سمي
به لأنه خلاصة الإنسان ، أو إنه لا يسمى ذلك إلا إذا خلص من الهوى
وشوائب الأوهام .

فعلى هذا هو أخص من العقل»^(٢) .

وفي (المفردات في غريب القرآن) : «اللب : العقل الخالص من
الشوائب . وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه كاللباب ،
واللب من الشيء .

وقيل : هو ما زكا من العقل ، فكل لب عقل ، وليس كل عقل لباً .

ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي
الأبواب ، نحو قوله : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا
يَذْكُرُ إِلَّا [أُولُوا الْأَلْبَابِ] ﴾ ونحو ذلك من الآيات»^(٣) .

(١) لسان العرب (لبب) .

(٢) تاج العروس (لبب) .

(٣) المفردات في غريب القرآن (لب) .

فأولو الألباب هم أصحاب العقول الراجعة الخالصة من الهوى والشوائب .

قد تقول : لقد قال في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الآية : ١٦٤] .

فقال : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، وقال في آية آل عمران : ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

فما الفرق ؟

فنقول : لقد بينا الفرق بين العقل واللب ، فإن اللب هو خالصة وخياره .

وأما ختام كل آية بما ختم ؛ فإنه لما ذكر في آل عمران صفة المتفكرين في خلق السموات والأرض ، وأنهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى كل حال ، ويسبحونه ويدعونه ، دلّ ذلك على أن هؤلاء أعلى ممن ذكروا في آية البقرة ، وأن عقولهم وتفكيرهم أعلى .

فهؤلاء هو أولو العقول الخالصة الراجعة ، ذلك أنه لم يذكر في البقرة وصفاً لهم غير العقل .

فناسب كل تعبير موضعه .

جاء في (تفسير الرازي) أنه ختم آية البقرة «بقوله ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وختم هذه الآية بقوله : ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ لأن العقل له ظاهر وله لب ،

ففي أول الأمر يكون عقلاً ، وفي كمال الحال يكون لباً^(١) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه إذا كان للعقل ظاهر ولب ، فلب العقل أقل من مجموعهما . فإن ظاهر العقل ولبه أعم من اللب وحده . وما ذكره في البقرة أعم مما ذكره في آل عمران .

فإنه ذكر إضافة إلى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار الفلك التي تجري في البحر ، وإنزال الماء من السماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وبث الدواب فيها ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض .

وهذا أعم مما ذكره في آل عمران وأشمل ، وما ذكره في آل عمران أخص .

فناسب العموم العموم ، وهو العقل .

وناسب الخصوص الخصوص ، وهو اللب .

قد تقول : لقد قال في سورة الجاثية : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٢ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٣٣ وَأَخْلَلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٤ ﴾ [٣] .

[٥] .

فقال : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولم يقل (في خلق السموات والأرض) كما قال في آيتي البقرة وآل عمران .

(١) تفسير الرازي - المجلد ٣ / ٤٥٨ .

وقال: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴾ ولم يقل كما قال في البقرة ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ ﴾ .

ذلك أن السموات والأرض إنما يكونان بعد الخلق ، فإن الخلق إنما هو مصدر في الأصل ، ومعناه: التقدير ، قال الحجاج: (ولا أخلق إلا فريت) أي: لا أقدر إلا قطعت .

فالتقدير أولاً ، ثم الإيجاد بعده على ما قدر .

وإن الرزق يكون بعد إنزال الماء ، فإنه بعده يحصل الرزق بما تنتج الأرض .

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

فناسب ذكر السموات والأرض ذكر الرزق .

وناسب ذكر خلق السموات والأرض ذكر الماء .

ثم إنه قال في آيات الجاثية: ﴿ وَمَا يَكُنْ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ ، والدواب تحتاج إلى الرزق لتعيش ، كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٠] .

فناسب كل تعبير موضعه .

قد تقول: لقد قال في آية آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

فقدم خلق السموات والأرض على اختلاف الليل والنهار .

وقال في يونس: ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَشْقُونَ ﴾ [الآية: ٦] .

فقدم اختلاف الليل والنهار ، فلم ذاك؟

فنقول: إن ذلك لأكثر من سبب ، منها:

١ - أنه قال قبل آية يونس: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٥] .

ومن المعلوم أن اختلاف الليل والنهار عائد إلى اختلاف مطالع الشمس .

ولما تقدم ذكر الشمس والقمر قدم اختلاف الليل والنهار ، والشمس آية النهار ، والقمر آية الليل .

أما آية آل عمران فقبلها: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فذكر السموات والأرض ، فلما تقدم ذكرهما ناسب البدء بذكرهما ، وتقديمهما .

٢ - قال في آية آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فذكر خلق السموات والأرض .

وقال في آية يونس: ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴿ فذكر خلق ما فيهما لا خلقهما ، وكثير مما خلق الله فيهما إنما هو بعد وجود الليل والنهار .

فالنبات والحيوان ، ثم الإنسان إنما هي بعد وجود الليل والنهار ، وكثير مما هو في الأرض إنما هو بعد وجود الليل والنهار .

وكذلك ما خلق الله في السماء ؛ فإن قسماً من ذلك تكون بعد وجود الليل والنهار . وكثير من الظواهر الكونية إنما هي بعد وجود الليل والنهار .

ويقال : إنه لا تزال تتشكل أجرام أو تندثر إلى الآن .

فناسب تقديم ذكر الليل والنهار .

٣ - ومن الاختلاف بين الآيتين أنه ختم آية يونس بقوله : ﴿ لَا يَكُنْ لِقَوْمٍ يَسْتَقُوتُ ﴾ ذلك أنه ختم الآية التي قبلها بقوله : ﴿ يُفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

والعلم يؤدي إلى التقوى وخشية الله كما قال ربنا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

فناسب الختم بما ختم سبحانه .

* * *

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

* * *

ذكر الله إنما يكون باللسان والقلب ، كما قال ربنا سبحانه : ﴿ وَاذْكُرْ

رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥] .

وقدم القيام على القعود ، والقعود على الاضطجاع على الجنب في حالة العافية ؛ لأن الإنسان في حالة العافية كذلك بخلاف حالة المرض ، فإن الأكثر أن يكون ملازماً لجنبه. وقد غاير ربنا الترتيب في حالة المرض فقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ [يونس: ١٢] .

فقدم الجنب في حالة الضر وأخر القيام ، وقدم القيام في حالة العافية وأخر الاضطجاع على الجنب^(١) .

والمعنى أنهم يذكرونه في جميع أحوالهم .

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

أي : يتفكرون في إنشائهما وإيجادهما ، ويتفكرون فيهما بعد الإنشاء والإيجاد ، فهم يتفكرون في خلقهما ، وفيهما بدليل قوله سبحانه على ألسنتهم : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً ﴾ فقد أشار إلى هذه المخلوقات بقوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً ﴾ .

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً ﴾ .

لم يقل : (يقولون ربنا) أو : (قائلين ربنا) ليشمل قولهم بألسنتهم وفي نفوسهم وفي تفكيرهم .

(١) انظر : كتابنا (معاني النحو) - باب حروف الجر (اللام) ٣ / ٦٤ .

وقدر بعضهم قولاً مقدراً ، أي : يتفكرون في ذلك قائلين أو يقولون^(١) .

وجوز بعضهم أن يكون قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً ﴾ حكاية لتفكرهم في نفوسهم ، جاء في (التحرير والتنوير) : « ويجوز عندي أن يكون قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً ﴾ حكاية لتفكرهم في نفوسهم ، فهو كلام النفس يشترك فيه جميع المتفكرين »^(٢) .

ويترجح عندي إرادة الأمرين ، فلم يذكر القول .

وقولهم : ﴿ سُبْحَنَكَ ﴾ أي : تنزهت عن العبث والباطل ، فإنك لا تفعل إلا الحق « وصدرت الجملة بالنداء مبالغة في التضرع إلى معود الإحسان كما يشعر به لفظ الرب »^(٣) .

وبعد دوام الذكر على جميع أحوالهم وتفكرهم فيما خلق ربهم ، وتنزيههم له عن العبث والباطل وعن كل ما لا يليق ، تضرعوا إليه بالدعاء أن يقيهم عذاب النار ، وهو أعظم ما يخافه ويخشاه أهل الذكر والمعرفة بالله ، فإنه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو لهم غير ظالم .

ولعل هذا إشارة إلى أن الداعي يحسن أن يقدم بين يدي دعائه ذكر الله والثناء عليه ، وألا يكون غافلاً ، كما علمنا ربنا في سورة الفاتحة أن ندعوه بعد الثناء عليه وإخلاصهم له بالعبادة وذلك قوله : ﴿ أَهْدِنَا

(١) انظر : روح المعاني ٤/ ١٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ١٩٧ .

(٣) روح المعاني ٤/ ١٦٢ .

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٥﴾ بعد قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والوقاية من عذاب النار فوز ، كما قال ربنا: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ [الأنعام: ١٥-١٦].

* * *

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

* * *

تكرار النداء بقولهم ﴿رَبَّنَا﴾ يدل على تضرعهم وتذللهم له.

﴿إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أي: فضحته وأهنته.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: ليس لهم من ناصر ينصرهم.

وجاء بـ (من) الاستغرافية لتأكيد ذلك ولاستغراق نفي الأنصار على وجه العموم. جاء في (روح المعاني): «أي: ليس لكل منهم ناصر ينصره ويخلصه مما هو فيه... ووضع الظالمين موضع ضمير المدخلين لدمهم ، والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم»^(١).

ثم إن اختيار (الظالمين) مناسب للسياق الذي وردت فيه الآية.

وذلك ليشمل الذين قتلوا الأنبياء الذين ذكرهم فيما تقدم من قوله

(١) روح المعاني ٤/١٦٣.

سبحانه: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [١٨٧].

وقوله: ﴿ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ [الآية: ١٨٦].

وقوله بعد ذلك: ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي ﴾ [الآية: ١٩٥].

وكل ذلك من فعل الظالمين.

وقال: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ بجمع النصير ، ولم يقل: (وما للظالمين من نصير) كما قال في الحج (٧١) ؛ لأن المذكورين في آية آل عمران أكثر ، وهم على مدى الأزمان. أما المذكورون في الحج فهم المذكورون في زمن الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٣٨] اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [١٩]. ويستمر في ذكرهم.

وهؤلاء قلة بالنسبة إلى عموم الظالمين ، وقد يكون لهؤلاء نصير واحد ، فناسب ذكر المفرد.

أما المذكورون في آية آل عمران فهم مستمرون إلى آخر الدنيا فلا يكون لهم نصير واحد.

ثم إنه ناسب الكثرة الجمع ، والقلة الإفراد.

قد تقول: لقد قال في مواطن: ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرٍ ﴾ [آل عمران:

فقال: ﴿تَنْصِرِينَ﴾.

وقال في مواطن: (من أنصار) فما الفرق؟

فنقول: إن (الأنصار) يحتمل أن يكون جمع (نصير) كشریف وأشراف ، وأن يكون جمع (ناصر).

فإن جمع (النصير) على أنصار.

و(الناصرون) جمع ناصر.

و(النصير) صيغة مبالغة ، و(الناصر) اسم فاعل.

والنصير أقوى من الناصر ، فإن نفيت الناصر كان نفي النصير من باب أولى.

ونفي النصير لا يعني بالضرورة نفي الناصر ، فإن نفي الكثير لا يعني بالضرورة نفي القليل.

فقولك: (مالك من ناصر) أقوى في نفي من ينصرك من قولك: (مالك من نصير).

وهذا الأمر جارٍ في القرآن الكريم ، فإنه يقول: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ تَنْصِرِينَ﴾ في الكفار ، وما هو أشد ضللاً ، وفيمن هم أشد ضللاً ، من قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ أَنْصَارٍ﴾.

فإنه يقول في مواطن عدة: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

[البقرة: ٢٧٠] ، [آل عمران: ١٩٢] ، [المائدة: ٧٢] .

والظالم ليس كافراً بالضرورة ، فإن الظالم قد يكون كافراً وغير كافر.

وأما قوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ فقد يقوله في الكفار ومن هو أشد ضللاً .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢] .

فقد ذكر كفرهم وظلمهم لقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقتلهم من يأمر بالقسط من الناس ، فقال: ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ .

وقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٦] .

فذكر الذين كفروا ، وذكر أنهم يعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ، فقال: ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ .

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١] .

فذكر الذين كفروا وماتوا وهم كفار .

وقال: ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ (٢٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٣٧-٣٨] .

فذكر أن الله لا يهدي من يضل ، ومعنى ذلك أنهم يموتون على

الكفر ، ثم ذكر أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، فذكر أنهم لا يؤمنون بالبعث .

فهؤلاء كفار ضالون لا يهديهم الله .

وقال في قوم إبراهيم الذين القوه في الجحيم : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم مِّبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] .

فذكر أن هؤلاء يعبدون الأوثان وذكر حالهم في الآخرة .

وقال : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن تَصْرِيحٍ ﴾ [الروم : ٢٩] .

فهؤلاء ظالمون يتبعون أهواءهم ، وإن الله أضلهم فلن يهديهم أحد ، ومعنى ذلك أنهم كافرون ظالمون .

وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَصِقِّينَ ﴾ (٣٢) ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ ﴾ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُمْخِرُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الجاثية : ٣٢-٣٥] .

فهؤلاء منكرون للساعة مستهزئون بآيات الله ، وهم سيمكثون في النار لا يخرجون منها .

فأنت ترى أن كل من قال فيهم : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن تَصْرِيحٍ ﴾ هم أشداء في الكفر ضالون لن يهديهم أحد .

في حين قال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] .

فلم يذكر غير الظلم فقال: ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ .

وقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل

عمران: ١٩٢] .

فذكر الظالمين .

وكذا قال في المائدة: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] .

* * *

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] .

* * *

كرروا نداء ربهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ إظهاراً لتضرعهم وتذللتهم .

﴿إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾ .

المنادي قيل: هو رسول الله ﷺ ، وقيل: هو القرآن ، قيل: لأنه ليس كل واحد يسمع النبي ﷺ ، وأما القرآن فظاهر باق على مرّ الأيام والدهور^(١) .

(١) انظر: روح المعاني ٤/ ١٦٣ .

قد تقول: لِمَ لَمْ يقل: (إنا سمعنا منادياً للإيمان) ويكتفي، ولكن جمع بين المنادي وفعله فقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾؟ وأجيب عن ذلك بأنه للتعظيم والتفخيم. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: فأَي فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟

قلت: ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان. ونحوه قولك: مررت بهادٍ يهدي للإسلام. وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب، أو لإطفاء النائرة، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض المنافع. وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق، ويهدي لسداد الرأي، وغير ذلك. فإذا قلت: ينادي للإيمان، ويهدي للإسلام، فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته»^(١).

وجاء في (روح المعاني): «وفي إطلاق المنادي أولاً حيث قال سبحانه: ﴿مُنَادِيًا﴾ ولم يذكر ما دعي له، ثم قوله عز شأنه: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ ما لا يخفى من التعظيم لشأن المنادي والمنادى له. ولو قيل من أول الأمر: (منادياً للإيمان) لم يكن بهذه المثابة.

وحذف المفعول الصريح لـ (ينادي) إيذاناً بالعموم، أي: كل واحد»^(٢).

واختار (المنادي) على (الداعي) لأن النداء فيه رفع الصوت، فكأنه

(١) الكشاف ١/٣٦٩.

(٢) روح المعاني ٤/١٦٤.

رفع صوته بالدعاء إلى الله ليسمعه كل أحد .

وجاء في (روح المعاني) : « وإيثاره على (الداعي) للإشارة إلى كمال اعتناؤه بشأن الدعوة وتبليغها إلى القريب والبعيد ؛ لما فيه من الإيذان برفع الصوت »^(١) .

وجاء في (التحرير والتنوير) : « المنادي الذي يرفع صوته بالكلام ، والنداء : رفع الصوت بالكلام رفعاً قوياً لأجل الإسماع ... ومنه سمي الأذان : نداء .

وأطلق هنا على المبالغة في الإسماع والدعوة وإن لم يكن في ذلك رفع صوت »^(٢) .

وذكروا أنهم آمنوا عن طريق السماع لا عن طريق رؤيته ﷺ ، وفي ذلك إظهار لصدق إيمانهم وسرعة استجابتهم .

فالذين آمنوا برسول الله ولم يروه لهم فضلهم وكرامتهم على الله .

ثم إن ذكر السماع مناسب لذكر النداء ، فإن النداء يسمع .

وقالوا : (إننا) بتكرار النون إشارة إلى تأكيد ذلك . جاء في (نظم الدرر) أنهم أظهروا النون في (إننا) إبلاغاً في التأكيد^(٣) .

قد تقول : ولكنه قال في مواطن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ ولم يظهر النون ،

(١) روح المعاني ١٦٣/٤ .

(٢) التحرير والتنوير ١٩٩/٤ .

(٣) نظم الدرر ١٥٧/٢ .

وذلك في قوله تعالى على لسان الجن : ﴿ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِنَّ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣٠] .

وقوله : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن : ١-٢] .

وكلتا الآيتين على لسان الجن .

فنقول : الاختلاف من أوجه :

ذلك أنهم ذكروا أنه سمعوا الكتاب ولم يسمعوا المنادي ، في حين أنه قال في آل عمران أنهم سمعوا المنادي .

وسماع المنادي أدعى إلى التأكيد ، هذا إضافة إلى أن في النداء من رفع الصوت ما يدعو إلى المبالغة .

فناسب التوكيد في آية آل عمران .

والأمر الآخر أنه في آية آل عمران ذكروا ذلك توسلاً وطلباً لمغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم وحسن الخاتمة وأمور أخرى ذكروها في قوله : ﴿ وَءَايَنَّا مَا وَعَدْنَاهُ عَلَى رُسُلِكَ ﴾ ، والداعي ينبغي أن يتوسل ويتضرع ويؤكد ذلك ، فناسب التأكيد .

ولم يرد مثل ذلك في آيتي الأحقاف وسورة الجن .

فناسب كل تعبير موضعه .

﴿ فَتَامَنَا ﴾ .

عطف بالفاء للدلالة على سرعة استجابتهم ، وهو « مؤذن بتعجيل القبول وتسبب الإيمان عن السماع من غير مهلة »^(١) .

﴿ رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ .

ذلك أن الإيمان مدعاة إلى مغفرة الذنوب ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله . وأما من لم يؤمن فلا مغفرة له ولا تكفير .

وقيل فيما قيل : إن المراد من الذنوب ما تقدم من المعاصي ، ومن السيئات ما تأخر منها . جاء في (نظم الدرر) للبقاعي في قوله : ﴿ رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ «أي : التي أسلفناها قبل الإيمان ، بأن تقبل منا الإيمان فلا تزيع قلوبنا ، فيكون جاباً لما قبله عندك كما كان جاباً في ظاهر الشرع .

وكذا ما فرط منا بعد الإيمان ولو كان بعد توبة ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ أي : بأن توفقنا بعد تشريفك لنا بالإيمان لاجتناب الكبائر بفعل الطاعات المكفرة للصغائر»^(٢) .

والأكثر على أن الذنوب هي الكبائر ، والسيئات هي الصغائر ، ويؤيد ذلك قوله : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] فأفرد السيئات عن الكبائر .

لقد ذكر في الآية مع الذنوب المغفرة ، ومع السيئات التكفير ؛ ذلك

(١) روح المعاني ٤ / ١٦٤ .

(٢) نظم الدرر ٢ / ١٥٧ وانظر : روح المعاني ٤ / ١٦٤ .

أن (غفر) معناه: ستر وغطى ، وكل شيء سترته فقد غفرته .

ومنه (المِغْفَر) وهو زرد من الحديد يكون تحت بيضة الحديد على الرأس ؛ لأنه يغطي ما تحته .

وأما (كفر) فهو من الستر أيضاً. والكفر في اللغة: التغطية ، غير أنه لا يرقى إلى صلابة المغفر وشدته وقوته. فـ «الكافر: الزَّرَاع لستره البذر بالتراب ، والكفار: الزُّرَّاع ، والكافر: الليل ، والكافر والكُفْر: الظلمة ، لأنها تستر ما تحته ، والكُفْر: ظلمة الليل»^(١).

فلما كان الذنب أعظم وأثره أكبر وعقوبته أشد ، استعملت معه المغفرة ؛ لأن المغفر يقي ما تحته ويحميه .

ولما كانت السيئة من الصغائر ؛ استعمل لها ما هو أخف ، فالكافر: الليل ، والكافر: الظلمة .

والليل والظلمة يحجبان الرؤية ، ولكنهما لا يحميان من السهام والسلاح أو الضرب .

وكذلك إذا كان بمعنى (كفر البذرة) أي: غطاها بالتراب ، فإن التراب يكون قليلاً فوقها ، وهو لا يحميها إذا أرادها أحد بسوء .

فلما كانت السيئة أخف استعمل منها ما هو أخف في التغطية .

وقدم مغفرة الذنوب على تكفير السيئات لأنها أعظم ، ولأن الإسلام

(١) انظر لسان العرب (كفر) و(غفر) ، القاموس المحيط (كفر) و(غفر) .

يجبها ، وقدمهما على التوفي ليموتوا مغفوراً لهم فلا يصيبهم عذاب القبر .

ثم سألوه صحبة الأبرار وذلك قوله : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ .

﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ .

«مخصوصين بصحبته ، معدودين في جملتهم»^(١) .

فهم بدعائهم هذا سألوه حسن الخاتمة وصحبة الصالحين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ، وقال في آية أخرى من السورة : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٧] .

فقال في الآية السابقة : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ .

وقال في هذه الآية : ﴿ وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

فاختلفت الخاتمتان ، فما السبب ؟

فنقول : إن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك ، فإنه قال في سياق الآية التي ذكرناها آنفاً : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ

قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾

فالسباق كما هو بين في الجهاد وساحة القتال ، فسؤال التثبيت
والنصر هو المناسب ، ولا يناسب طلب الوفاة .

فالذين في ساحة القتال يسألون التثبيت والنصر ، وهذا هو المناسب ،
فكانت كل خاتمة أنسب بسياقها .

* * *

﴿ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
الْمِيعَادَ ﴾ ﴿٤٨﴾

* * *

أي : آثنا ما وعدتنا ، وهو الوعد الذي ذكرته على لسان رسلك
للمصدقين بهم ، فنحن آمنا بك وصدقنا رسلك .

والظاهر - والله أعلم - أن الوعد يشمل ما وعد المؤمنين من النصر في
الدنيا ، وما وعدهم من حسن ثواب الآخرة .

وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ يعني : لا تفضحنا بسوء ما عملناه إن
كنا أذنبنا ، فاستر ذلك علينا يا ربنا . جاء في (الكشاف) : «الموعود هو
الثواب ، وقيل : النصر على الأعداء»^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : «وأيد كون المراد النصر لا الثواب

الأخروي تعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ؛ لأن طلب الثواب يغني عن هذا الدعاء ؛ لأن الثواب متى حصل كان الخزي عنهم بمراحل. وهذا بخلاف ما إذا كان المراد من الأول الدعاء بالنصر في الدنيا ، فإن عدم الإغناء عليه ظاهر ، بل في الجمع بين الدعاءين حينئذ لطافة ؛ إذ مآل الأول لا تخزنا في الدنيا بغلبة العدو علينا .

فكانهم قالوا: لا تخزنا في الدنيا ، ولا تخزنا في الآخرة . . .

وترك العطف في هذه الأدعية المفتحة بالنداء بعنوان الربوبية للإيدان باستقلال المطالب وعلو شأنها^(١) .

وجاء في (التحرير والتنوير) أنه «ثواب الآخرة و ثواب الدنيا لقوله تعالى: ﴿فَقَالَتْ لَهُمْ أَلَلَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾»^(٢) .

وهو الراجح فيما أحسب .

قد تقول: لقد قال في هذه السورة في موضع سابق: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩] .

فقال بعد الخطاب: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩] .

بإسناد ذلك إلى لفظ الجلالة: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ .

وقال في هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ .

(١) روح المعاني ٤/ ١٦٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٢٠٠ .

بالإسناد إلى ضمير الخطاب ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ .

فما الفرق؟

والجواب أن الظاهر من تعبير: ﴿إِنَّكَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أن هذا كلام الله سبحانه ، وليس كلام الراسخين ، جاء في (البحر المحيط): «ظاهر العدول من ضمير الخطاب إلى الاسم الغائب يدل على الاستئناف ، وأنه من كلام الله تعالى لا من كلام الراسخين الداعين .

قال الزمخشري: معناه أن الإلهية تنافي خلف الميعاد ، كقولك: إن الجواد لا يخيب سائله»^(١) .

وجاء في (روح المعاني): «﴿إِنَّكَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ جوز أن تكون هذه الجملة من كلامه تعالى لتقرير قول الراسخين لا من كلام الراسخين. قال السفاقسي: وهو الظاهر»^(٢) .

وجوز أن يكون ذلك من كلامهم على الالتفات «للإشارة إلى تعظيم الموعود والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيّب... وهذا بخلاف ما في آخر السورة حيث أتى بلفظ الخطاب فيه لما أن مقامه مقام طلب الإنعام»^(٣) .

والفرق بين الموطنين أن الراسخين في العلم لم يشيروا إلى موعد وعدم إياه ، ولم يطلبوا إلا الهداية وطلب الرحمة وعدم زيغ القلوب

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٨٧ .

(٢) روح المعاني ٣/ ٩١ .

(٣) روح المعاني ٣/ ٩١ .

فَقَالُوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ثم ذكروا جمع الناس ليوم لا ريب فيه فقالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَمَاعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

وقوله: ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾ يعني: جمع الناس لذلك اليوم .

وأما الآية الأخرى فهي في سياق جملة من الأدعية ، ومن ذلك قولهم: ﴿ رَبَّنَا وَءَايَاتُنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ .

فهم طلبوا أن يؤتيهم ما وعدهم على السنة رسلهم في الدنيا والآخرة . فلما سألوهم إنجاز ما وعدهم قالوا: ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾ فتناسب ذلك تذييل كلامهم بما قالوا توسلاً لإنجاز ما وعدهم إياه ربهم .

* * *

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا أَكْفِرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [الآية: ١٩٥] .

* * *

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِ ﴾ .

جاء بالفاء للدلالة على سرعة استجابة دعائهم .

وذكر الرب مضافاً إليهم ، وذلك لما دعوه قائلين: ﴿ رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا . . . رَبَّنَا وَءَايَاتُنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ بإضافة الرب إليهم ، فاستجاب

ربهم دعاءهم بإضافة الرب إليهم ، فإنهم دعوا ربهم فاستجاب لهم ربهم .
وهو نظير قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ
السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ بذكر الرب مضافاً إليه ، فاستجاب له
سبحانه بقوله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ فإنه دعا ربه
فاستجاب له ربه .

لقد ذكر الإيمان أولاً بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ .

وذكر ههنا العمل فقال : ﴿ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ ﴾ .

فدل ذلك على أن استجابة دعائهم إنما كانت للإيمان والعمل
الصالح ، ولما قدموه بين يدي الدعاء من التعظيم والثناء على الله ، وذلك
قوله : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ . . . ﴾ مما يدل على
أنه ينبغي الثناء على الله وتعظيمه وذكره قبل الدعاء .

جاء في (روح المعاني) : «وذكر الرب هنا مضافاً ما لا يخفى من
اللفظ . . . والإشعار بأن مدارها [أي : الاستجابة] أعمالهم التي قدموها
على الدعاء لا مجرد الدعاء»^(١) .

وقال : ﴿ مَن ذَكَرَ أَوْ أَنْتَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ ليشمل جميع المتصفين
بهذه الصفات ، وأن هذا لا يختص بالذكر . وهو نظير قوله في (غافر) :
﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : ٤٠] .

(١) روح المعاني ٤/ ١٦٨ ، وانظر : تفسير أبي السعود ٢/ ٣٣ .

فذكر الذكر والأنثى .

وقد تقول : لقد قال في غافر : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في
ال عمران ، فما السبب ؟

والجواب ظاهر ، وذلك أنه ذكر أنهم مؤمنون ، فقد قال عنهم : إنهم
قالوا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ .

وقد وصفهم بصفات المؤمنين .

وقد قال : ﴿ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أي : من المؤمنين ، وذكر
أنهم أودوا في سبيله . فذكر الإيمان والعمل الصالح في الموضعين .

لقد ذكر في هذا السياق :

١ - الإيمان بالله ، فقال : ﴿ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ .

٢ - وذكر الإيمان بالرسول ، وذلك قوله : ﴿ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى
رُسُلِكَ ﴾ . ومقتضى الإيمان بالرسول الإيمان بالكتب وما نزل إليهم .
والإيمان بالملائكة ، فإنهم هم الذين يبلغون الرسل عن الله .

وقد ذكر الذين أوتوا الكتاب قبل هذه الآيات فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ
مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [الآية : ١٨٧] .

٣ - وذكر الإيمان باليوم الآخر فقال : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
الْعَهْدَ ﴾ .

ومقتضى الإيمان بالكتب الإيمان بما ورد فيها ، ومنها الإيمان
بالقدر ، فاستكملوا عناصر الإيمان .

﴿ فَأَلْزَيْنَ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا
لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

* * *

لقد رتب هذه الأمور بحسب الشدة .

فذكر الهجرة ، والهجرة قد تكون اختياراً ، وقد تكون اضطراراً .

ثم ذكر الذين أخرجوا من ديارهم ، وهو أشد مما قبله ، فإنهم
أخرجوا منها إخراجاً .

ثم ذكر الإيذاء في سبيل الله ، وهو أشد مما قبله .

ثم ذكر القتال ، وهو أشد مما قبله ، فإن الإيذاء قد لا يؤدي إلى
القتال .

ثم ذكر بعد ذلك القتل ، وهو أشد من كل ما سبق .

﴿ لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ بَاجِرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

قدم تكفير السيئات على دخول الجنات ؛ لأن دخول الجنات بعد
تكفير السيئات ، فقدم ما هو أسبق .

لقد أكد تكفير السيئات وإدخال الجنات بنون التوكيد الثقيلة ، وقال
في أكثر من موضع : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ ﴾
[النساء: ٥٧-١٢٢] .

والسين ونون التوكيد كلتاها تفيد الاستقبال ، فما سبب اختيار كل

تعبير؟

والجواب أن السياق يوضح سبب ذلك .

فإنه يؤكد بالنون إذا كان العمل ثقیلاً شاقاً ، وإن لم يكن السياق كذلك جاء بالسین .

فقد ذكر ههنا الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيله وقاتلوا وقتلوا ، وكل ذلك من المشاق ، فأكد بالنون .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [المائدة: ١٢] .

فقد ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان برسول الله ومساندتهم وتقويتهم وإقراض الله قرضاً حسناً .

وفيها شيء من المشاق ، وخصوصاً تقوية الرسل ومساندتهم ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ فقد يقتضي ذلك مواجهة من لم يؤمن .

ونحو ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [الحج: ٥٨ - ٥٩] .

فقد ذكر الهجرة والقتل والموت ، ولا تخفى مشقة ذلك .

أما ما جاء بالسین فليس السياق في نحو ذلك .

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧]

فليست هذه في سياق الجهاد والفتنة وما إلى ذلك ، حتى إنه لم يفصل في الإيمان والعمل الصالح كما فصل في آية المائدة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغيرها إضافة إلى الإيمان .

ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢] .

فليست الآية في سياق مشاق الأعمال وثقلها .
فلما كانت الآيات في سياق مشاق الأعمال وثقلها أكد بالنون الثقيلة ، ولما لم تكن كذلك لم يأت بها . والله أعلم .
﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ .

لم يقل: (وعند الله الثواب الحسن)؛ لأن الكلام على الله ودعائه وتزويجه وأنه استجاب لهم ووعدهم بأنه يكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات ، ثم قال ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فناسب تقديمه والإخبار عنه بأنه عنده حسن الثواب .

كما لم يقل: (والله عنده الثواب الحسن) بوصف الثواب بالصفة المشبهة ، وإنما قال: ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ فجاء بـ (الحسن) مصدراً ، مبالغة في وصفه بالحسن ، أي: هو الحسن بعينه .

وقدم الخبر للحصر ، فليس عند غيره ثواب أصلاً ، وإنما هو عنده حصراً ، فإذا كان عنده الحُسْن فكيف يكون حسن عند غيره؟ وكيف يكون عند غيره نصيب منه؟

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قابل في التعبير في الآية .
فإن قوله : ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ قابله بقوله : ﴿ وَلَا تُدْخِلْنَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ .
فالإخراج مقابل الإدخال .

و ﴿ أُخْرِجُوا ﴾ مبني للمجهول ، و (أدخلنهم) مبني للفاعل ، وهو مسند إلى رب العزة .

و (الديار) التي أخرجوا منها تقابل (الجنات) التي أدخلهم ربهم فيها .

* * *

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ
جَهَنَّمَ وَيُبْسَسَ الْمَهَادُ ﴿ [آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧] .

* * *

التقلب : هو التصرف على حسب المشيئة من ذهاب ومجيء وسفر وتجارة وحروب .

وهذا دال على تمكنهم وسعة تصرفهم .

فنهاه عن أن يغتر بذاك ، فإن هذا متاع قليل .

وقد أكد النهي بالنون ؛ لأن المقام يقتضي ذلك ، فهم متمكنون آذوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم وآذوهم وقتلوهم ، وكل ذلك مدعاة

إلى الاغترار بقوتهم وقدرتهم ، فنهاه عن أن يغتر بذاك ، وأخبر عن ذاك بأنه متاع قليل .

والمتقلب لا بد أن يأوي بعد تقلبه ، فذكر أن مأواهم جهنم .
والمتقلب يريد أن يمهد لنفسه ما يستريح إليه ويجد فيه راحة فقال :
﴿ وَيَسَّ الْمَهَادُ ﴾ أي : بشئ ما مهدوا لأنفسهم .
جاء في (البحر المحيط) : « ﴿ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ : ثم المكان الذي يأوون إليه إنما هو جهنم .

وعبر بـ (المأوى) إشعاراً لهم بانتقالهم عن الأماكن التي تقلبوا فيها ، وكأن البلاد التي تقلبوا فيها إنما كانت لهم أماكن انتقال من مكان إلى مكان ، لا قرار لهم ولا خلود . ثم المأوى الذي يأوون إليه ويستقرون فيه هو جهنم^(١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود) : « ﴿ وَيَسَّ الْمَهَادُ ﴾ ذم لها وإيدان بأن مصيرهم إليها مما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم^(٢) .

وجاء في (روح المعاني) : « ﴿ وَيَسَّ الْمَهَادُ ﴾ أي : بشئ ما مهدوا لأنفسهم وفرشوا جهنم .

وفيه إشارة إلى أن مصيرهم إلى تلك الدار مما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم^(٣) .

* * *

(١) البحر المحيط ٣ / ١٧٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ / ٣٤ .

(٣) روح المعاني ٤ / ١٧٢ .

﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨] .

* * *

لقد أثير سؤال في هذه الآية ، وقوله سبحانه في الآية ذات الرقم (١٩٥) ، وهي قوله : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ... ﴾ .

وهو أنه قال في هذه الآية : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل في الآية السابقة ذلك ، فلم ذاك؟

وظاهر أن ثمة أكثر من اختلاف بين هاتين الآيتين :

١ - فقد قال في الآية (١٩٥) : ﴿ وَلَا دُخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ .

وقال في هذه الآية : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ .

٢ - وقال في الآية (١٩٨) : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ .

ولم يقل في الآية (١٩٥) ذلك .

٣ - وقال في الآية (١٩٥) : ﴿ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ .

وقال في الآية (١٩٨) : ﴿ نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ .

ومن النظر في الآيتين يتضح سبب الاختلاف بينهما .

١ - ذلك أن المذكورين في الآية (١٩٨) أعم وأشمل وأعظم ممن ذكر في الآية (١٩٥) .

فإن الأولين ، وهم الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ومن ذكرهم بعدهم ، إنما هم من المتقين ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فإن الموصوفين بالآية (١٩٥) إنما هم قسم ممن ذكر في الآية (١٩٨) . قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١٧٧) .

جاء في (تفسير الرازي) في قوله : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ أنه يتناول جميع الطاعات ؛ لأنه يدخل في التقوى الاحتراز عن المنهيات وعن ترك المأمورات^(١) .

فلما ذكر أن المتقين خالدون فيها دخل فيهم أولئك المذكورون في الآية (١٩٥) .

ولما كان المذكورون في الآية (١٩٨) أعم وأشمل ، ناسب ذكر الخلود فيما هو أعم .

ثم إنه لما ذكر قلب الذين كفروا في البلاد وقال إنه متاع قليل ، أي : هو زائل وهم زائلون ، ناسب أن يذكر أن الذين اتقوا ربهم خالدون في الجنة وليس المتاع قليلاً .

(١) تفسير الرازي - المجلد الثالث ٤٧٢ .

٢ - ذكر في الآية (١٩٥) أنه يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار .
وذكر فيمن هم أعم وأشمل ، وهم الذين اتقوا ربهم أن لهم جنات
تجري من تحتها الأنهار .

ولاشك أن هؤلاء أعلى ؛ فإن قوله : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ يفيد التملك . أما
الإدخال فلا يعني التملك بالضرورة ، فإنك لو أدخلت شخصاً في قاعة
أو قصر ، لا يعني أنك ملكته إياه ، بخلاف ما لو قلت : إنه لك .

فناسب الجزاء العمل .

٣ - وقال في الآية (١٩٥) : ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ .

وقال في الآية (١٩٨) : ﴿ نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ .

والنزل : ما يعد للضيف أول نزوله من شراب وطعام وصلة ، فهم في
ضيافة الرحمن .

ومن معاني النزول أيضاً : المنزل .

والنزل أعلى من الثواب ؛ فإنك قد تعطي الثواب صاحبه ولكن
لا تنزله وتعدله الإكرام .

وإذا كانت الجنة نزلاً فما بالك بما بعدها من نحو قوله : ﴿ وَمَسْكَنٌ
طَلَبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ؟

جاء في (نظم الدرر) للبقاعي : «وأشار بجعل الجنات كلها نزلاً إلى
التعريف بعظيم ما لحقهم بعد ذلك عنده سبحانه من النعيم الذي لا

يمكن الآدميين وجه الاطلاع على حقيقة وصفه ؛ ولهذا قال معظماً - لأنه لو أضمر لظن الاختصاص بالنزل - ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ أي : الملك الأعظم من النزل وغيره^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : «النزل : ما يعدّ للضيف أول نزوله من طعام وشراب وصلة . . .

وعليه تمسك بعضهم بالآية على رؤية الله تعالى ، لأنه لما كانت الجنة بكليتها نزلاً ؛ فلا بد من شيء آخر يكون أصلاً بالنسبة إليها ، وليس وراء الله شيء . . . نعم فيه حينئذ إشارة إلى أن القوم ضيوف الله تعالى ، وفي ذلك كمال اللطف بهم^(٢) .

وجاء في (البحر المحيط) : «وسماه نزلاً لأنه ارتفع عنهم تكاليف السعي والكسب ، فهو شيء مهياً ، يهياً لهم لا تعب عليهم في تحصيله ولا في تسويته ومعالجته . . .

والأبرار هم المتقون الذين أخبر عنهم بأن لهم جنات^(٣) .

٤ - قال تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ ولم يقل : (وما عند الله خير لهم) ليبين أن الذين اتقوا إنما هم من الأبرار. قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

وقال : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ

(١) نظم الدرر ٢/ ١٥٩ .

(٢) روح المعاني ٤/ ١٧٣ .

(٣) البحر المحيط ٣/ ١٤٧ .

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . . أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾ .

«والتعبير عنهم بالأبرار ، ووضع الظاهر موضع المضمرة ، كما قيل ؛ للإشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البر ، كما أنها من قبيل التقوى»^(١) .

ثم إن قوله : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ مناسب لدعاء المؤمنين : ﴿ وَتَوَقَّنا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ وقد ذكر طرفاً من صفاتهم ، وهو الإيمان والتفكر في خلق السموات والأرض وذكر الله سبحانه .

* * *

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩] .

* * *

هذه الآية مناسبة لما قبل هذه الآيات ، وهو قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ١٨٧ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴿ [آل عمران: ١٨٧-١٨٨] .

(١) روح المعاني ١٧٣/٤ ، وانظر: البحر المحيط ١٤٨/٣ ، تفسير أبي السعود ٢٤/٢ .

فذكر الذين أوتوا الكتاب وأخذة الميثاق عليهم ليبينته للناس فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً .

ثم ذكر ههنا أن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إلى الرسول وما أنزل إليهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً .

فأولئك اشتروا به ثمناً قليلاً ، وهؤلاء لا يشترون به ثمناً قليلاً .

وذكر أن أولئك لهم عذاب أليم .

وأما هؤلاء فلهم أجرهم عند ربهم .

وهي مناسبة أيضاً لما ورد في أول السورة من إنزال القرآن والتوراة والإنجيل ، وهو قوله سبحانه : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ^(٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ .

وقد ذكر في هذه الآية ، أعني الآية ذات الرقم (١٩٩) ، أن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وهي الكتب المذكورة في أول السورة .

فناسبت الآية ما تقدمها وما ورد في أول السورة .

لقد قال ههنا : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ . . . ﴾ .

بالتركيد بـ (إن) واللام .

وقال في موضع آخر : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِعِطَافِ نُورِهِ ﴾

إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴿١٧٥﴾ [آل عمران : ١٧٥] من غير توكيد ، وذلك لأن هذا الموطن أدعى إلى التوكيد ، ذلك أن المؤمنين في خلق الله كثير. ولا شك أن من أهل الكتاب من يؤدي الأمانة ، ولكن أن يغير الذي من أهل الكتاب دينه ويؤمن بما أنزل إلى الرسول خاشعاً لله ، فهذا قليل نادر. وهو الذي به حاجة إلى توكيد أكثر من الحالة الأخرى .

فأكد ما هو أولى بالتوكيد .

﴿ إِنْ أَلَّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

أكد سرعة الحساب بـ (إن). وفي مواطن لا يؤكد ذلك ، وإنما يقول :
﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أو نحوه .

وهناك أمور تقتضي التوكيد ، منها : أن يكون الخلق كثيرين ، وهذا في العادة يقتضي طول الحساب ، ولئلا يظن أن ذلك يقتضي طول مدة بالنسبة إلى الله ؛ يؤكد سرعة الحساب .

أو أن الحساب قريب عاجل ، فيؤكد لئلا يظن أنه سيؤخره . أو أنه نافذ علمه في الحساب ، وفي كل شيء لا يندّ عنه شيء ، فإن ذلك يؤكد سرعة الحساب ، بخلاف من لا علم له .

جاء في (نظم الدرر) للبقاعي : «ولما كانت العادة قاضية بأن كثرة الخلق سبب لطول الحساب ، وذلك سبب لطول الانتظار... فأزال هذا التوهم بأن أمره تعالى على غير ذلك ؛ لأنه لا يشغله شأن عن شأن بقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١).

وجاء في (الكشاف) في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: «النفوذ علمه في كل شيء ، فهو عالم بما يستوجه كل عامل من الأجر. ويجوز أن يراد: إنما توعدون لآت قريب بعد ذكر الموعد»^(٢).

وجاء في (روح المعاني): «﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إما كناية عن كمال علمه تعالى بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق وأنه يوفيهما كل عامل على ما ينبغي وقدر ما ينبغي... وإما كناية عن قرب الأجر الموعود ؛ فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء»^(٣).

واليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١].

وهذا يشمل جميع النفوس على الإطلاق (كل نفس) فاقضى توكيد سرعة الحساب.

وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

وهذا نظير الآية السابقة ، فذكر كل النفوس ، فاقضى التوكيد. في

(١) نظم الدرر ٢/ ١٦٠.

(٢) الكشاف ١/ ٣٧١.

(٣) روح المعاني ٤/ ١٧٤.

حين قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وهذا شخص واحد جرى نحو السراب فمات ظمآن ، فلا يستدعي تأكيد سرعة الحساب .

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] .

وهو في هذه الآية لم يذكر أناساً يحاسبهم ، وإنما هو من باب ذكر صفته سبحانه .

وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩] .

والكفرة كثيرون ، فناسب تأكيد سرعة الحساب .

وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤] .

وفي هذه الآية أمران ، كل منهما يقتضي التوكيد:

الأمر الأول: أنه حكم لعموم المسلمين ، وهم كثرة .

والأمر الآخر: أنه أمرهم بالتقوى . والتقوى مما يقتضي سرعة توفية الأجر في الدنيا قبل الآخرة . قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] .

وأما بالنسبة للمذكورين في آية آل عمران التي نحن بصدد بيانها ، فإنه أكد سرعة الحساب ليدل على أنه سيعجل لهم أجرهم في الدنيا ، علاوة على ما أعد لهم في الآخرة من الأجر ، وخاصة ذكر أن هؤلاء لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً .

ومن يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً إنما يطلب عاجل الدنيا ، فقال ربنا إنه سيعجل للذين لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أجرهم في الدنيا ، علاوة على ما في الآخرة ، فالتوكيد مناسب من أكثر من وجه .

* * *

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

* * *

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا ﴾ والصبر عام ، صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية .

﴿ وَصَابِرُوا ﴾ أي : اصبروا على شدائد الحرب ، واثبتوا في مواجهة الأعداء . جاء في (الكشاف) : «أي : غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب ، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً»^(١) .

وجاء في (التحرير والتنوير) : «المصابرة : الصبر في وجه صابر . وهذا أشد الصبر ثباتاً في النفس ، وأقربه إلى التزلزل ، وذلك أن الصبر في وجه

(١) الكشاف ١ / ٣٧١ وانظر : روح المعاني ٤ / ١٧٥ .

صابر آخر شديد على نفس الصابر ؛ لما يلاقيه من مقاومة قرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه»^(١).

﴿ وَرَاطِبُوا ﴾ أي : أقيموا في الثغور. والمرابطة نوع من الصبر^(٢).

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ «في مخالفة أمره على الإطلاق ، فيندرج فيه جميع ما مر اندراجاً أولياً»^(٣).

﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ «أي : لكي تظفروا وتفوزوا بنيل المنية ودرك البغية والوصول إلى النجح في الطلبة ، وذلك حقيقة الفلاح»^(٤).

وهذه الأوامر متدرجة في الشدة على حسب ما ذكر.

فالمصابرة أشد من الصبر ، والمرابطة أشد من المصابرة وأدوم ، وتقوى الله عامة في كل الأحوال.

ثم لننظر من ناحية أخرى :

إن هذه الآية كأنها في مقابل قوله سبحانه : ﴿ فَأَلْزِمَ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتْلُوا وَفُتِلُوا ﴾ .

ونظيرته في الشدة.

فقوله :

﴿ أَصِيرُوا ﴾ بمقابل الذين هاجروا .

(١) التحرير والتنوير ٢٠٨/٤.

(٢) روح المعاني ١٧٥/٤.

(٣) روح المعاني ١٧٥/٤.

(٤) روح المعاني ١٧٥/٤.

﴿ وَصَابِرُوا ﴾ بمقابل قوله ﴿ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي ﴾ .

﴿ وَرَابِطُوا ﴾ بمقابل ﴿ وَقَتَلُوا وَفُتِلُوا ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فهو بمقابل قوله : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ .

ثم إن هذه الآية مناسبة لأول السورة بعدها ، وهي مفتتح سورة النساء . قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

فقد أمر المؤمنين بالتقوى في خاتمة آل عمران فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وأمر الناس عموماً بها في آية النساء فقال : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ وقال أيضاً : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ .

ثم إنه في خواتيم آل عمران ذكر الذين اتقوا ربهم فقال : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ فذكر الرب .

ثم أمر بتقوى الله في خاتمة السورة فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

فذكر اسمه العلم (الله) .

وكذلك ذكر في مفتتح سورة النساء ، فذكر الرب وذكر لفظ الجلالة فقال : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ .

ثم قال بعدها : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ .

فذكرهما ههنا كما ذكرهما ثم ، وهو من لطيف التناسب .

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وجه مناسبتها لما قبلها ، وهي سورة الحديد :

١ - أنه قال سبحانه في آخر سورة الحديد :

﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وذكر من فضل الله العظيم في أول سورة المجادلة أنه سمع للمرأة التي تجادل رسول الله في زوجها ، وأنها تشتكي إلى الله ، فحفظها من التضييع ، وحفظ المسلمين من نحو هذا إلى يوم القيامة . . .

٢ - ذكر في أواخر سورة الحديد أن أهل الكتاب ابتدعوا رهبانية ما كتبها الله عليهم ، وذلك قوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الآية : ٢٧] .

وذكر في أول سورة المجادلة من الأمور المبتدعة التي لم يكتبها الله سبحانه ، بل أبطلها ، وهي الظهار . قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ ^(١) .

وجاء في (روح المعاني) أن «وجه مناسبتها لما قبلها أن الأولى ختمت بفضل الله تعالى ، وافتتحت بما هو من ذلك .

وقال بعض الأجلة في ذلك : لما كان في مطلع الأولى ذكر صفاته تعالى الجليلة ، ومنها الظاهر والباطن ، وقال سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ افتتح هذه بذكر أنه جل وعلا سميع قول المجادلة التي شكت إليه تعالى . . . وذكر سبحانه بعد ذلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ ﴾ الآية .

وهي تفصيل لإجمال قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] .

* * *

افتتحت السورة بالتي تجادل رسول الله في زوجها وتشتكي إلى الله ، والتحاور في ذلك ، وذلك أن هذه الآية نزلت في صحابية قيل إن اسمها خولة بنت ثعلبة ، ظاهر منها زوجها ، أي : قال لها : أنت علي كظهر أمي ، وكان الظهار يعد طلاقاً في الجاهلية ، فذهبت إلى رسول الله ﷺ

تشتكي أمرها ، فقال لها رسول الله ﷺ : «إنك قد حرمت عليه» ، وهي تقول له : والله ما ذكر طلاقاً. ثم قالت : إني أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، وإن لي صبية صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إني أشكو إليك .
فأنزل هذه الآية ، وأنزل حكم الظهار بعدها^(١) .

والملاحظ في هذه السورة أن طابعها في النجوى والمحاورات .
فقد ذكر النجوى بين الأفراد وعلم الله بهم أينما كانوا ، وأياً كان عددهم ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ... ﴾ [الآية : ٧] .

وذكر التناجي بالإثم والعدوان في الآية الثامنة .
ثم ذكر كيف يكون التناجي بين المؤمنين : ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَثَرِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَى ﴾ [الآية : ٩] .
وذكر أن النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا (١٠) .
وذكر حكم مناجاة الرسول (١٢ - ١٣) .

وذكر حالاً من موقف المنافقين في الحلف على الكذب للمؤمنين .
وهو حالة من حالات الحديث والمحاورات ، ثم إن النجوى حديث .

وذكر في آخر السورة حزب الله ، وأفراد الحزب بينهم حديث ومحاورات .

(١) انظر : فتح القدير ٥/ ١٧٧ .

كما ارتبط أول السورة بآخرها ، فإنه «بعد أن ذكر أمر التي سمع الله قول التي تجادل في زوجها والحكم في ذلك ، قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنْتُمْ كَمَا كُنْتِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾» .

وقال في أواخرها :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ ﴾ .

فذكر في أول السورة أنهم كُتِبُوا .

وقال في أواخرها أنهم في الأذلين .

ثم ذكر في آخر السورة ما ينبغي أن يكون موقف المؤمنين من هؤلاء فقال : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ فالمناسبة ظاهرة^(١) .

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ .

(قد) للتوقع والتحقيق والتقريب ؛ فإن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله شكواها ، وقد تحقق ذلك .

جاء في (الكشاف) : «فإن قلت : ما معنى (قد) في قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ ﴾ ؟ قلت : معناه التوقع ؛ لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها»^(٢) .

(١) التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم ٦٨ - ٦٩ .

(٢) الكشاف ٢٠٦/٣ .

وجاء في (روح المعاني): «و(قد) للتحقيق أو للتوقع ، وهو مصروف إلى تفريج الكرب لا إلى السمع لأنه محقق ، أو إلى السمع لأنه مجاز أو كناية عن القبول ، والمراد توقع المخاطب ذلك»^(١).

وقد سمع الله شكواها وأجابها عن قرب في الوقت ، وليس بين شكواها والإجابة وقت بعيد . «والسمع مجاز عن القبول والإجابة»^(٢).

قد تقول: لقد قال سبحانه ههنا ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ .

فقال: ﴿ قَدْ سَمِعَ ﴾ .

وقال في آل عمران: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ .

فقال: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ ﴾ .

فما الفرق؟

والجواب أن (لقد) أكد من (قد) لدخول لام جواب القسم عليها .

والقول في آل عمران أعظم في حق الله ، وهو كبيرة من الكبائر ، فقد قالوا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ولذا قال بعدها: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ ، وإن الله توعدهم على ذلك بعذاب الحريق فقال: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ

(١) روح المعاني ٣/٢٨ .

(٢) روح المعاني ٣/٢٨ .

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٨﴾ .

فلما كان القول أعظم ، وقد توعدهم بالعذاب ؛ ناسب ذلك تأكيد
السمع لإيقاع العقوبة ، فقال : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ باللام الواقعة في جواب
القسم ، والله أعلم .

﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ .

«واشتكاؤها إليه تعالى : إظهار بثها وما انطوت عليه من الغم والهم ،
وتضرعها إليه عز وجل»^(١) .

و(اشتكى) أبلغ من (شكا) فإنه على وزن (افتعل) وهو أبلغ من
(فعل) ، ونظيره : جهد واجتهد ، وصبر واصطبر . وذلك أن هذا الأمر قد
غمها كثيراً وآذاها ، فبالغت في الشكوى . جاء في (التحرير والتنوير) :
«والاشتكاء مبالغة في الشكوى ، وهي ذكر ما آذاه ، يقال : شكا وتشكى
واشتكى . وأكثرها مبالغة (اشتكى)^(٢) .

﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ .

«وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار
التحاور وتجده»^(٣) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

(١) روح المعاني ٢/٢٨ .

(٢) التحرير والتنوير- المجلد ١١ ج ٢٨/٩ .

(٣) تفسير أبي السعود ٦/٢٨٥ .

«أي: تعالى يسمع كل المسموعات ويبصر كل المبصرات على أتم وجه وأكملة. ومن قضية ذلك أن يسمع سبحانه تحاورهما ، ويرى ما يقارنه من الهيئات التي من جملتها رفع رأسها إلى السماء ، وسائر آثار التضرع.

والاسم الجليل في الموضعين لتربية المهابة وتعليل الحكم بما اشتهر به الاسم الجليل من وصف الألوهية ، وتأکید استقلال الجملتين»^(١).

قد تقول: لقد قال سبحانه في غافر: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿

فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فأكد ب (إن) وجاء بضمير الفصل (هو) وعرف الوصفين (السميع البصير).

في حين قال في آية المجادلة: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ فلم يأت بضمير الفصل ، ولم يعرف الوصفين.

فلم ذاك؟

والجواب أنه لما ذكر في آية غافر أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فبين أن علمه لا يشبهه علم ، وذكر أن الله يقضي بالحق ، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ، فبين أن قضاءه لا يشبهه قضاء ، فليس في الوجود من يعلم كعلمه ، ولا يقضي كقضائه ، بين أن

(١) روح المعاني ٤/٢٨ .

سمعه لا يشبهه سمع ولا بصره يشبهه بصر ، فكأنه هو السميع البصير وحده ، فقصر كمال السمع والبصر عليه سبحانه .
فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

وقد تقول : لقد قال سبحانه في الشورى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

فعرف الوصفين السميع والبصير ، ولم يؤكد ذلك بـ (إن) .

فنقول : أما إنه عرف الوصفين فللقصر ، فكأن غيره ليس بسميع ولا بصير ، فهو الكامل في الوصفين ، وذلك أنه لما قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ناسب أن يقول : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أي : الكامل فيهما ، فقصر السمع والبصر عليه ؛ لأنه ليس كمثله شيء في هذين الوصفين وفي غيرهما .

قد تقول : وَلَمْ يَكُنْ يَكُونُ يَكُونُ كَمَا فَعَلَ فِي آيَةِ غَافِرٍ ؟

والجواب : أن السياق ليس في السمع ولا في البصر ، فلم يقتض التوكيد ، قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١١) .

وقد تقول : والسياق في غافر ليس في السمع والبصر أيضاً ، فلم أكد ؟

فنقول : إنه لما قال : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ ، والأعين آلة البصر ، دل على أنه البصير ؛ لأن الذي يعلم خائنة الأعين لابد أن يرى الأعين ، فهو لا يرى الأعين فقط ، بل يراها ويعلم خائنتها أيضاً ،

كالغمز والنظر إلى غير المحرم واستراق النظر وغيره .

وقال : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ومما يخفى في الصدور إذا أظهره فإنما يظهره بالقول ، والقول مما يسمع ، ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الملك : ١٣] .

فذكر إسرار القول والجهر به ، والقول يسمع .

ثم إن قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ يدل على السمع والبصر ، فالقضاء يحتاج إلى سمع وبصر . جاء في (روح المعاني) : « ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ... وفيه إشارة إلى أن القاضي ينبغي أن يكون سميعاً بصيراً»^(١) .

وجاء في (البحر المحيط) : « ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ تقرير لقوله : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يعملون ، وتعريض بأصنامهم أنها لا تسمع ولا تبصر»^(٢) .

وقد ذكر طرفاً مما يقال ويسمع ويبصر في سياق الآية . من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الآية : ١٤] .

والمدعو لابد أن يسمع من يدعوه حتى يجيبه .

وقوله : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ [الآية : ١٦] ، ومعنى ذلك أنه يراهم لا يخفى عليه منهم شيء .

(١) روح المعاني ٢٤ / ٦٠ .

(٢) البحر المحيط ٧ / ٤٥٧ .

وقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴾ ولا بد للمشفوع عنده أن يسمع الشفيع .

فالسباق - كما هو ظاهر - في الدلالة على السمع والبصر .

كما أنه تعريض بالهتهم التي لا تسمع ولا تبصر وليس لها شيء أصلاً وهي عاجزة عن كل شيء .

والله له الكمال الأعلى ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٩١] .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

* * *

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاهُمْ مِمَّا هُمْ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ﴾ .

* * *

ذكر في هذه الآية حقيقة الظهار ، وذكر في الآية بعدها حكم الظهار .

فذكر في هذه الآية أن الذين يظاهرون من نسائهم فيقول أحدهم لزوجها: أنت علي كظهر أمي ، كلامهم باطل ، وهو عار عن الحقيقة أولاً ، فالزوجة ليست أمّاً ، والأزواج لسن أمهات ، وإنما أمهاتهم من ولدنهم .

ولم يقل: (بل أمهاتهم من ولدنهم) وإنما قال ذلك على سبيل الحصر، فجاء بـ (إن) و(إلا) فقال: ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ حصراً .

ولم يكتف بذكر هذه الحقيقة المعلومة ، وإنما ذكر فظاعة هذا القول وقبحه فقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ .

فذكر أولاً أنه منكر من القول ، أي : هو قول ينكره الشرع والعقل والطبع ، وأنه زور ، أي : كذب باطل منحرف عن الحق. جاء في (البحر المحيط) : «جاء النفي بقوله : ﴿ مَا هُمْ بِأُمَهْتِهِمْ ﴾ ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ أُمَهْتَهُمْ ﴾ أي : حقيقة إلا اللائي ولدنهم .

فقول المظاهر منكر من القول تنكره الحقيقة وينكره الشرع ، وزور كذب باطل منحرف عن الحق»^(١) .

وقد أكد ذلك بيان واللام فقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ لبيان شناعة هذا القول. جاء في (التحرير والتنوير) : « ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ تأكيد الخبر بأن واللام للاهتمام بإيقاظ الناس لشناعته»^(٢) .

لقد جاءت في الآية تأكيدات عدة لبيان بطلان الظهار وشناعته .

فقال أولاً : ﴿ مَا هُمْ بِأُمَهْتِهِمْ ﴾ بالجملة الاسمية المنفية بـ (ما) ، ولم يقل (لسن أمهاتهم) فتكون الجملة فعلية. والجملة الاسمية أكد وأثبت كما هو معلوم .

وقال : ﴿ إِنَّ أُمَهْتَهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ بالحصر ، وهو تأكيد ، ثم

(١) البحر المحيط ٢٣٢/٨ وانظر : روح المعاني ٢٨/٢٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/١٣ .

إنه نفى بـ (إن) وليس بـ (ما) ، فلم يقل (ما أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم) ،
و(إن) أقوى من (ما) في النفي^(١).

ثم أكد القول بـ (إن) واللام فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ
وَزُورًا﴾ .

ثم جمع المنكر والزور ، فجمع القبح كله .

ثم قال ﴿مِنْكُمْ﴾ لتقبيح فعلتهم عند أقوامهم ومن هم منهم ؛ لينكروا
عليهم ويقبحوا فعلتهم ، لينأوا عن ذلك ويتعدوا عنه . جاء في (روح
المعاني):

«واقحام (منكم) في الآية للتصوير والتهجين ؛ لأن الظهار كان
مخصوصاً بالعرب»^(٢).

لقد قال هاهنا: ﴿إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فقال: ﴿اللَّتِي﴾
بالحمز ، ولم يقل: (إلا اللاتي ولدنهم) ذلك أن القرآن استعمل ﴿اللَّتِي﴾
بالحمز في حالتي الظهار والطلاق فقط ، ولم يستعملها في غير ذلك .

قال تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَوَةِ اللَّاتِي قَطَّعَنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾
[يوسف: ٥٠] .

وقال: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] .

فقال: ﴿اللَّتِي﴾ ولم يقل: (اللاتي) وذلك في غير حالتي الطلاق أو

(١) انظر: كتابنا (معاني النحو) ١٧٢/٤ .

(٢) روح المعاني ٤/٢٨ .

الظهار. وهذا في جميع القرآن «وكأن ذلك لثقل الهمزة ، فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة ، وهي حالات المفارقة .

ومن الطريف أن بناء (اللائي) وجرسها يوحي بذلك ، فكأنها مشتقة من اللائي ، وهو الإبطاء والاحتباس والجهد والمشقة والشدة .
والمظاهر والمطلق محتبس عن امرأته مبطئ عنها ، وفي ذلك ما فيه من الجهد والمشقة والشدة للطرفين»^(١) .

وهذا من لطيف الاستعمال .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

أي : يعفو عما سلف ويغفره له إذا لم يعد صاحبه لفعله ، وكما يشاء ربنا سبحانه .

وفرقوا بين العفو والمغفرة فقالوا :

إن العفو ترك العقوبة والتجاوز عن الذنب^(٢) .

والمغفرة ستر الذنب وتغطيته^(٣) .

فقد يعفو الشخص ولا يغفر ، أي : يعلن سوء فعلة الفاعل ويظهرها ، ثم يتركه فلا يعاقبه فيعفو عنه .

فالعفو لا يخالف التقريع على الذنب وإشهاره .

(١) انظر : كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ٦٠ - ٦١ .

(٢) مفردات الراغب (عفا) ، لسان العرب (عفا) .

(٣) انظر : لسان العرب (غفر) .

وأما المغفرة فهي ستر الذنب فلا تذكره له ، أو قد تذكره له ولكن لا تفضحه به . فقد قال تعالى بعد أن ذكر ما فعله بنو إسرائيل من اتخاذ العجل مبيكاً لهم : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥١ - ٥٢] .

فذكر لهم ولغيرهم سوء فعلتهم ، ثم قال : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ .

وقال ربنا مخاطباً أصحاب الرسول ﷺ بعد معركة أحد ، مبيناً ما لا ينبغي من فعلهم .

فقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعُتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ وَالْقَدَّ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

ثم إن العفو قد لا يكون عن ذنب أو سوء ، وإنما هو عما هو خلاف الأولى ، كما قال تعالى لخليله وحبيه ﷺ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُ ﴾ [التوبة : ٤٣] .

أما المغفرة فهي ستر الذنب وعدم فضحه به . جاء في (الفروق اللغوية) : « الفرق بين العفو والمغفرة قد فرق بينهما بأن العفو ترك العقاب على الذنب .

والمغفرة: تغطية الذنب بإيجاب التوبة . . .

وقيل: العفو: إسقاط العذاب.

والمغفرة أن يستر عليه بعد ذلك جرمه صوناً له عن الخزي والفضيحة . فإن الخلاص من عذاب النار إنما يطلب إذا حصل عقبيه الخلاص من عذاب الفضيحة .

فالعفو: إسقاط العذاب الجسماني .

والمغفرة: إسقاط العذاب الروحاني .

والتجاوز: يعمهما^(١) .

وقدم اسمه (العفو) على (الغفور) وكأن ذلك إشارة إلى تقديم العفو على المغفرة ، فبدأ بما هو أخف على من أسيء إليه ، لأن المغفرة هو العفو وزيادة ، إذ هي ترك العقوبة مع الستر .

ثم إن العفو - كما ذكرنا - قد يكون عما هو خلاف الأولى وليس عن معصية ، فهو أعم ، والله أعلم .

وحيث اجتمع العفو والمغفرة قدم العفو ، وحيث اجتمع الاسمان الكريمان قدم اسمه العفو .

قال تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠] .

(١) الفروق اللغوية ١/ ٣٦٣ .

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣] .

وجاء بالاسمين الجليلين على صيغة المبالغة للدلالة على عظيم عفوه ومغفرته ، نسأله سبحانه أن يعفو عنا ويغفر لنا إنه هو الغفور الرحيم .

* * *

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

* * *

بعد أن ذكر حقيقة الظهار وفطعه ذكر حكم الظهار فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ ولم يقل: (والذين يظاهرون منكم) كما قال في الآية السابقة ؛ لأنه أراد حكم الذين يظاهرون على العموم ليس مختصاً بذلك بزمان ولا بقوم معينين. جاء في (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني: «قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ وبعده: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ لأن الأول خطاب للعرب ، وكان طلاقهم في الجاهلية الظهار ، فقيدهم بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ ويقول: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُنَّ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ .

ثم بين حكم الظهار للناس عامة فعطف عليه فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ فجاء في كل آية ما اقتضى معناه»^(١) .

وجاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ :

(١) البرهان في متشابه القرآن لمحمد بن حمزة الكرماني ٣٠٩ .

«عطف على جملة ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ أعيد المبتدأ فيها للاهتمام بالحكم والتصريح بأصحابه ، وكان مقتضى الكلام أن يقال : فإن يعودوا لما قالوا فتحرير رقبة ، فيكون عطفاً على جملة الخبر من قوله : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ ...»^(١).

ويبدو - والله أعلم - أنه كرر الاسم الموصول فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ ولم يقل : (فإن يعودوا لما قالوا) لئلا يخص الحكم الأولين بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ ﴾ فيظن ظان أو يقول : إن هذا الحكم مختص بمن يظاهر منهم ، يعني : العرب أو غيرهم ممن يخصه قوله (منكم) ، فأطلق التعبير ليشمل كل مظاهر على العموم .
﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ .

المشهور أن المقصود بذلك العزم على الوطء^(٢) وإرادته .

جاء في (التحرير والتنوير) : «استعمل فعل ﴿ يَعُودُونَ ﴾ في إرادة العودة... على نحو قوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أي : إذا أردتم القيام ، وقوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾»^(٣).

وعلى كل قول فإن الحكم واحد وهو ما ذكره ربنا ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ﴾ أو غير ذلك مما ذكره رب العزة في الآية التي بعدها .

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ١٥ .

(٢) انظر : روح المعاني ٢٨ / ٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٨ / ١٦ .

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ .

أي : ما ذكره ربنا من الحكم بالكفارة والخطاب للمؤمنين .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

«أي : عالم بطواهرها وبواطنها ومجازيكم بها ، فحافظوا على حدود ما شرع لكم ، ولا تخلوا بشيء منها»^(١) .

قد تقول : لقد قال ربنا في آية المجادلة هذه : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ . فلم يؤكد الجملة .

وقال في سورة هود : ﴿ وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لِيُوفِّينَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فأكد الجملة بـ (إن) فقال : ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

فما الفرق؟

والجواب أنه أكد في آية هود بـ (إن) ؛ ذلك أنه ذكر العمل وذكر أن كلاً ليوفينهم ربك أعمالهم فلا يترك أحداً من المكلفين . كما أكد الفعل بنون التوكيد الثقيلة فقال : ﴿ لِيُوفِّينَهُمْ ﴾ . وجمع العمل فقال : ﴿ أَعْمَلَهُمْ ﴾ ، فكان التوكيد يان وباللام في (لما) ولام القسم ونون التوكيد في ﴿ لِيُوفِّينَهُمْ ﴾ ، وجمع العمل فقال : ﴿ أَعْمَلَهُمْ ﴾ فلا يترك عملاً ولا يترك أحداً من المكلفين .

فعمت آية هود كل الأعمال حسناتها وسيئها ، وعمت جميع المكلفين .

وأما آية المجادلة فهي في الظهار ، والظهار أمر واحد من المنكرات ،
والمظاهرون قلة .

فاختلف السياقان من حيث كمية الأعمال ونوعها .
ففي آية هود عمت الآية جميع الأعمال فلم تترك عملاً .
وأما ما في آية المجادلة فهو في عمل واحد وهو الظهار .
وفي آية هود عمت الآية جميع الأعمال من حيث النوع ، فشملت
الحسن والقبيح .

وأما ما في آية المجادلة فهو في نوع واحد من المنكرات وهو الظهار .
كما اختلف الأمران من حيث عدد أصحاب العمل .
ففي آية هود عمت الآية جميع المكلفين بلا استثناء ، مؤمنهم
وكافرهم .
وأما ما في آية المجادلة فهي في قسم واحد من المكلفين وهم
المظاهرون .

وهم قلة قليلة بالنسبة إلى عموم المكلفين .
فاختلف السياقان من كل وجه .
فناسب التوكيد آية هود ؛ بخلاف آية المجادلة .
فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

* * *

﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ

فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿المجادلة: ٤﴾ .

* * *

أي: فمن لم يجد رقبة ولا ثمنها فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين ، فمن لم يستطع ذلك فعليه إطعام ستين مسكيناً .

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكره من الحكم في كفارة الظهار .

﴿ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي: لتؤمنوا بالله وتصدقوا بما جاء به رسوله ، وتعملوا بما يأمركم به ، وترفضوا ما كنتم عليه من أحكام الجاهلية .

وقوله ﴿ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ يدخل فيه اتباع كل الأحكام التي يأمر بها الله ورسوله ، والانتفاء عما ينهى عنه الله ورسوله ، ودخل فيه ما ذكره من حكم الظهار .

فهو لم يقل: (ذلك لتكفروا عنكم إذا ظاهرتم من نسائكم وتعودوا إلى أزواجكم) وإنما قال: ﴿ ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فيدخل فيه كل ما يأتي عنهما .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ التي لا يجوز تعديها «فالزموها وقفوا عندها»^(١) .

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: للذين يتعدونها ولا يعملون بها عذاب

أليم^(١). «وأطلق الكافرين على متعدي الحدود تغليظاً لجزره»^(٢).

قد تقول: لقد قال في الآية السابقة: ﴿ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ فقال: ﴿ذَلِكُمْ﴾ بالخطاب للجمع.

وقال في هذه الآية: ﴿ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ فكأنه خطاب للمفرد، مع أنه قال: ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بصيغة الجمع.

فلم ذاك؟

والجواب أنه يصح في حرف الخطاب في اسم الإشارة مراعاة المفرد ومراعاة المخاطب؛ نوعاً وعدداً.

فيصح في كل المخاطبين أن تقول (ذلك) بحرف الخطاب المفتوح أياً كان المخاطب، مفرداً أو غير مفرد، مذكراً أو مؤنثاً.

كما يصح أن تطابق فتقول (ذلك) للمفرد المذكر، و(ذلك) بكسر الكاف للمخاطبة المؤنثة، و(ذلكما) لخطاب المثني، و(ذلكم) لجماعة الذكور، و(ذلكن) لخطاب جماعة الإناث.

وكلا الاستعمالين وارد في القرآن الكريم.

أما الاختيار في الآيتين فلعل من أسباب ذلك أن من معاني كاف الخطاب في الجمع والإفراد أنه للتمييز بين مجموعتين، فقد تكون

(١) الكشف ٢٠٨/٣.

(٢) روح المعاني ٢٨/٢٠.

مجموعة أكبر من مجموعة ، فيستعمل لخطاب الجمع الكثير بصورة الجمع وللقليل بصورة الأفراد^(١) .

فاستعمل ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ للجماعة التي هي أكثر ، فقد استعملها لعموم المظاهرين ، واستعمل ﴿ ذَلِكَ ﴾ لمن هم أقل ، وهم الذين لا يجدون أو لا يستطيعون فقال :

﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ .

فهم قسم من المظاهرين ، وهم غير المستطيعين منهم .

فاستعمل ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ لمن هم أكثر .

واستعمل ﴿ ذَلِكَ ﴾ لمن هم أقل .

والله أعلم .

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

أي : يعادونهما «والمحاداة : المعادة والمخالفة في الحدود»^(٢) ، جاء في (تفسير البيضاوي) : « ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعادونهما ،

(١) انظر : كتابنا (معاني النحو) ١ / ٩٨ .

(٢) البحر المحيط ٨ / ٢٣٤ .

فإن كلاً من المتعاضدين في حد غير حد الآخر ، أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما^(١).

وجاء في (روح المعاني): ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي: يعادونهما ويشاققونهما ؛ لأن كلاً من المتعاضدين في حد وجهة غير حد الآخر وجهته ، كما أن كلاً منهما في عدوة وشق غير عدوة الآخر وشقه^(٢).

واتصال هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ في الآية السابقة في غاية الظهور والحسن. جاء في (روح المعاني): «وفي ذكر المحادة في أثناء ذكر حدود الله تعالى دون المعادة والمشاقة حسن موقع جاوز الحد»^(٣).

﴿ كُتِبَ ﴾ : أخذوا وأذلوا. والكبت: الصرف والإذلال ، يقال: كبت الله العدو ، أي: صرفه وأذله وأخذه بالعذاب^(٤).

قيل: إن ذلك إخبار عما حدث لمشركي قريش في بدر والخندق. وقيل: هو إخبار بالفعل الماضي عما سيحدث لهم في المستقبل ، وكان الأمر لتحقيقه قد وقع فعلاً ، وهي بشارة للمؤمنين.

جاء في (البحر المحيط): ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ نزلت في

(١) تفسير البضاوي ٧٢٠.

(٢) روح المعاني ٢٨ / ٢٠.

(٣) روح المعاني ٢٨ / ٢٠.

(٤) انظر: لسان العرب (كبت).

مشركي قريش ، أُخْزُوا يوم الخندق بالهزيمة ، كما أُخْزِيَ من قاتل الرسل من قبلهم ... وقيل : يوم بدر ...

قيل : و ﴿ كُتِبُوا ﴾ بمعنى : سيكتبون ، وهي بشارة للمؤمنين بالنصر ، وعبر بالماضي لتحقيق وقوعه^(١) .

وكلاهما صحيح وقد حصل .

﴿ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ «من كفار الأمم الماضية المحادين لله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام»^(٢) .

﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ .

أي : آيات واضحة «فيمن حادّ الله تعالى ورسوله من قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم .

وقيل آيات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به»^(٣) .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ .

وقال في سورة البقرة : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الآية : ٩٩] .

فقال في المجادلة : ﴿ وَقَدْ ﴾ .

وقال في آية البقرة : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ بذكر اللام الواقعة في جواب القسم .

وقال في آية المجادلة : ﴿ أَنْزَلْنَا ﴾ .

(١) البحر المحيط ٢٣٤ وانظر : روح المعاني ٢٨ / ٢٢ .

(٢) روح المعاني ٢٨ / ٢٢ .

(٣) روح المعاني ٢٨ / ٢٢ .

وقال في آية البقرة: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

فجعل الإنزال عاماً في المجادلة .

وخصصه بالإنزال إليه في آية البقرة .

فلم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه .

فإن السياق في آية البقرة في الكلام على اليهود الذين يؤمنون بما أنزل على موسى ويكفرون بما أنزل على محمد عليهما السلام .

فهم يقرون بعموم الإنزال على الرسل المذكورين عندهم وينكرون الإنزال على محمد ، والكلام إنما هو في هذا السياق .

فقد قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الآية: ٨٩] .

وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [الآية: ٩١] .

وقال: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الآية:

[٩٧]

وذلك كما ذكر أن يهود سألت رسول الله ﷺ أسئلة ، فأخذ عليهم العهد والمواثيق لئن أجابهم ليتابعنه على الإسلام ، ثم أجابهم عنها ، ثم

قالوا له بعد ذلك: أنت الآن حدثنا عن وليك من الملائكة ، فعندها نجامعك أو نفارقك .

فقال : إن وليي جبريل ، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه .

قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواء من الملائكة تابعناك وصدقناك . ثم قالوا له : إنه عدونا . فأنزل الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ... ﴾^(١) .

فهم يقرون بالإنزال على العموم ، وينكرون الإنزال على سيدنا محمد ، فناسب أن يقول : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

ولو قال : (ولقد أنزلنا آيات بينات) ولم يقل : (إليك) لم يدل على أن المقصود أن الإنزال إنما هو إليه نصاً صريحاً ، ولظن ظان أو يدعي مدع أن المقصود بالسياق هو موسى عليه السلام كما أخبر عنه في آيات عديدة أنه جاءهم بالبينات من نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٩٢] وهي في السياق نفسه .

فكان المناسب أن يقول : (إليك) لبيان المقصود ، ولو لم يذكره لالتبس الأمر ولم يتعين المقصود .

وأما في المجادلة فمن أول السورة ما يدل على أن الإنزال إليه . وقد قال قبل الآية : ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، وقال في الآية نفسها : ﴿ إِنَّ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢٩٩ طبع بدار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه .

الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿ فَأخبر عنه أنه رسول الله ، فلاشك أن الإنزال إنما هو إليه ، فلا يستدعي ذكر (إليك) ليعلم أنه رسول الله .
هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنه قال في الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبِتُوا كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .

ويعني بالذين من قبلهم كفار الأمم الماضية المحادين لله ورسوله . ولاشك أنه سبحانه أنزل إلى الرسل الماضية آيات بينات ، فناسب عدم تخصيص الإنزال بأنه إليه ؛ ليعم ما أنزل إليه وما أنزل من قبله ، وهم الذين أشار إليهم في الآية .

فكان العموم أولى وأنسب بالسياق .

ومن ناحية ثالثة أن الإنزال إنما هو إلى الرسل ولأمرهم ليعملوا بما أنزل إليهم ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ١٠] .

وقال : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

ففي آية المجادلة أطلق الإنزال ليعم الإنزال إلى الرسول وإلى الرسل قبله وإلى الذين أنزل إليهم حكم الظهار الذي ورد في السياق ليعملوا به .
فناسب الإطلاق من كل ناحية .

وقال في آية البقرة : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ فقال : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ باللام الواقعة في جواب القسم ؛ لأن المقام يستدعي ذلك ، فإن اليهود كانوا

ينكرون أنه أنزل عليه الوحي ، كما هو ظاهر في السياق ، فأكد الإنزال باللام وقد .

بخلاف آية المجادلة ، فالكلام مع المؤمنين ، وحكم الظهار إنما أنزل إليهم ؛ فلم يستدع ذلك أن يؤكد .

فناسب كل تعبير سياقه .

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

أي : يخزيهم ويذهب بكرهم ، فإن الذين يحادّون الله ورسوله يناسب أن يكون العذاب مخزياً لهم .

ونحو ذلك ما جاء في التوبة وهو قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٦٣] .

فقد قال فيهم : ﴿ ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ وذلك أنهم حادوا الله ورسوله .

وهو نظير قوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فالعذاب المهين إنما هو مخزٍ لهم .

قد تقول : لقد قال في الآية السابقة : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وقال في هذه الآية : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

فلم ذاك ؟

والجواب ظاهر ، فقد ذكر الإيمان في الآية السابقة فقال : ﴿ ذَلِكَ

﴿تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فَنَاسِبُ أَنْ يَقُولَ فِي خَاتَمَتِهَا: ﴿وَاللَّكَفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فذكر العذاب الأليم للكافرين ؛ لأن الكفر نقيض الإيمان .

وأما هذه الآية فهي في الذين يحادون الله ورسوله ، فَنَاسِبُ أَنْ يَكُونَ الْعَذَابُ مُهِينًا لَهُمْ . جاء في (البرهان في متشابه القرآن) : «قوله تعالى : ﴿وَاللَّكَفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وبعده : ﴿وَاللَّكَفِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لأن الأول متصل بضده ، وهو الإيمان ، فتوعدهم على الكفر بالعذاب الأليم الذي هو جزاء الكافرين .

والثاني متصل بقوله (كبتوا) وهو الإذلال والإهانة ، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال : ﴿وَاللَّكَفِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(١) .

* * *

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الآية : ٦] .

* * *

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ .

متعلق بما قبله ، والمعنى : وللكافرين عذاب مهين يوم يبعثهم الله ، بمعنى : أن العذاب المهين إنما هو يوم يبعثهم الله ، على اختلاف التقدير في المتعلق به ، أهو على معنى : وللكافرين يوم يبعثهم الله عذاب مهين ،

(١) البرهان في متشابه القرآن للكرماني ٣٠٩ وانظر : كشف المعاني لابن جماعة ٣٥٣ .

أي: أن اليوم متعلق بالاستقرار الذي تعلق به (للكافرين) الذي هو خبر عن العذاب.

أم هو متعلق بـ (مهين) أي: على معنى: وللكافرين عذاب مهين يوم يبعثهم الله ، أي: أن الإهانة يوم يبعثهم الله .

أو على أنه منصوب بإضمار (اذكر) أي: اذكر ذلك اليوم. أو على أنه منصوب بـ (يكون) مضمراً على أنه جواب لمن سأل: متى يكون عذاب هؤلاء؟ فقل له ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ أي: يكون في يوم يبعثهم^(١).

ولا يجيز النحاة على العموم أن يكون (اليوم) متعلقاً بالعذاب في نحو هذا التعبير ؛ ذلك لأن المصدر لا يعمل عندهم إذا فصل بينه وبين معموله بتابع ، ومن ذلك الوصف ، وما ورد من ذلك مؤول^(٢) .

واستثنى بعضهم الظرف من ذلك^(٣) .

وعلى أية حال فإن العذاب المهين إنما هو في ذلك اليوم .

﴿ جَمِيعًا ﴾ .

حال ، وتحتمل أن تكون الحال هذه مؤكدة ، أي: يبعثهم كلهم ، كما تحتمل أن تكون مؤسسة ، أي: يبعثهم مجتمعين^(٤) .

(١) انظر: البحر المحيط ٢٣٤/٨ ، روح المعاني ٢٨/٢٢-٢٣ ، الكشف ٢٠٨/٣ .

(٢) انظر: همع الهوامع ٩٣/٢ ، شرح الأسموني ٢٨٦/٢ ، شرح التصريح ٦٣/٢ ، وانظر: البحر المحيط قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ٢٢/٣ .

(٣) انظر: البحر المحيط ٢٥٣/٦ .

(٤) انظر: البحر المحيط ٢٣٤/٨ ، الكشف ٢٠٨/٣ ، روح المعاني ٢٨/٢٣ .

والمعنيان مرادان ، فربنا يبعثهم كلهم ويجمعهم في صعيد واحد ، وهو من التوسع في المعنى .

﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ .

«تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بحالهم ، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد»^(١) .

جاء في (روح المعاني) : « ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ من القبايح بيان صدورها عنهم ، أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤوس الأشهاد تخجيلاً لهم وتشهيراً بحالهم ، وزيادة في خزيهم ونكالهم»^(٢) .

﴿ أَحْصَنَهُ اللَّهُ ﴾ .

«أحصاه بجميع تفاصيله وكميته وكيفيته وزمانه ومكانه»^(٣) وقد أحاط به عدداً لم يفته منه شيء»^(٤) .

﴿ وَنَسُوهُ ﴾ .

«لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه لم يبالوا به لضرارتهم بالمعاصي ، وإنما تحفظ معظمات الأمور»^(٥) .

(١) الكشف ٢٠٨/٣ .

(٢) روح المعاني ٢٣/٢٨ .

(٣) البحر المحيط ٢٣٤/٨ .

(٤) الكشف ٢٠٨/٣ .

(٥) الكشف ٢٠٨/٣ .

وجاء في (البحر المحيط): «ونسوه لاستحقارهم إياه واعتقادهم أنه لا يقع عليه حساب»^(١).

﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

«لا يغيب عنه أمر من الأمور أصلاً»^(٢).

قد تقول: لقد قال في آية المجادلة هذه: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .
وقال في سورة الحج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١٧) :

فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فأكد بـ (إن) دون آية المجادلة.

فلم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للموضع الذي ورد فيه من أكثر من جهة:

١ - فقد ذكر في آية الحج جميع الملل من الذين آمنوا ومن اليهود والنصارى وغيرهم ممن ذكرهم في الآية.

أما في آية المجادلة فذكر الذين يحادّون الله ورسوله ، وهم الذين في زمن الرسول. ثم قال: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

فقد جمع في آية الحج الذين آمنوا مع أهل الأديان والملل الأخرى وغيرهم من المشركين .

(١) البحر المحيط ٨ / ٢٣٤ .

(٢) روح المعاني ٢٨ / ٢٣ .

وواضح أن الذين يفصل بينهم في آية الحج أكثر بكثير ، فإن آية المجادلة في الذين يحادّون الله ورسوله ، وهم مجموعة قليلة بالنسبة إلى المذكورين في آية الحج .

٢ - ذكر في آية المجادلة أنه ينبئهم بما عملوا .

وذكر في آية الحج أنه يفصل بينهم ، والفصل أوسع من مجرد التنبيء .

فإنه ينبئ ثم يفصل ؛ لأن من مقتضيات الفصل التنبيء .

٣ - قال في آية المجادلة : ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ فلم يؤكد الفعل .

وقال في آية الحج : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ فأكد ذلك بإن .

٤ - ذكر في آية المجادلة ما عملوه ونسوه فقال : ﴿ أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ .

أما في آية الحج فالفصل يكون فيما ذكروه ومانسوه من الأعمال . فهو أعم وأشمل .

فناسب التوكيد في آية الحج ، والله أعلم .

ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه حيث ذكر شهادته سبحانه على كل شيء قدم (على كل شيء) على الشهادة فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

أما إذا لم تكن الشهادة على كل شيء فيقدم الشهادة على ذلك

البعض فيقول: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨] ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]. ذلك أن الشهادة على كل شيء أمر عظيم متسع لا يترك شيئاً إلا كان شهيداً عليه ، فيقدم (على كل شيء) للأهمية .

أما إذا لم تكن الشهادة على كل شيء فهي ليست بمنزلة تلك في الاتساع والإحاطة فلا يقدم. ثم إنه سبحانه وحده الشهيد على كل شيء ، وليست ثمة ذات أخرى شهيدة على كل شيء .

أما نحو قوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أو ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ فقد يكون هناك من يشهد على عملهم أو فعلهم .

فناسب التقديم في نحو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دون غيره .

* * *

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ .

* * *

مناسبة هذه الآية للآية قبلها مناسبة ظاهرة ، فإنه لما ذكر سبحانه في الآية السابقة أن الله يبعث الكافرين جميعاً فينبئهم بما عملوا دل ذلك على علمه سبحانه ؛ فإن الله أحصى ما عملوه ونسوه .

ثم إنه لما ذكر فيها شهادته على كل شيء فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ناسب ذلك أن يذكر في هذه الآية علمه بما في السموات وما في الأرض وما يتناجى به الناس ويعلم ما عملوه ، وليس العلم بذلك

فقط ، وإنما هو معهم أينما كانوا ، وإنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ،
كما ذكر في الآية قبلها أنه ينبئهم بما عملوا ، ثم ذكر أن الله بكل شيء
عليم .

فذكر في الآية السابقة شهادته على كل شيء ، وذكر في هذه الآية
علمه بكل شيء .

فهو سبحانه يعلم ويشهد كل شيء ، ولئلا يظن أنه يعلم عن طريق
الإخبار ذكر سبحانه أنه على كل شهيد ، فهو يشهد كل شيء وعليم بكل
شيء ، فاستوفى صفات الكمال في العلم .

فقوله سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا
هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ يدخل في قوله
سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

فذكر في هذه الآية معيته وعلمه سبحانه .

ثم إن المعية قد تكون أقرب من المشاهدة والشهود ، وهو الحضور ،
فقد تشاهد الشيء وأنت بعيد عنه ، وقد تشهد الجماعة ولست معهم ،
فذكر أنه معهم .

فذكر علمه ما في السموات وما في الأرض .

وذكر معيته لخلقه .

وذكر علمه بكل شيء .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي : ألم تعلم ، وفيها معنى التعجيب^(١) . وهنا تعجيب من سعة هذا العلم وإحاطته بكل شيء ، فإنه سبحانه يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ويعلم كل شيء . جاء في (روح المعاني) : « قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ استشهاد على شمول شهادته تعالى ، أي : ألم تعلم أنه عز وجل يعلم ما فيهما من الموجودات ، سواء كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما »^(٢) .

﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ .

قوله : ﴿ مَا يَكُونُ ﴾ يدل على الاستمرار في كل ما يكون من ذلك ، وليس ذلك في وقت معين أو حالة معينة أو مكان معين .

وجاء بـ ﴿ مِنْ ﴾ فقال : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ﴾ للدلالة على الاستغراق ، فلا تكون نجوى من أي عدد كان إلا والله معهم « أو على أن المعنى : ما يكون شيء من النجوى »^(٣) .

وقيل في تخصيص العددين بالثلاثة والخمسة أكثر من وجه :

« (أحدها) أن قوماً من المنافقين تخلفوا للتناجي مغايظة للمؤمنين

(١) انظر : لسان العرب (رأي) ، وانظر : الكشف ٢٨٦/١ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] ، معاني النحو ١٣/٢ .

(٢) روح المعاني ٢٨/٢٣ .

(٣) روح المعاني ٢٨/٢٣ .

على هذين العددين ثلاثة وخمسة... فالآية تعريض بالواقع على هذا^(١).

«أو لأن الله وتر يحب الوتر ، والثلاثة أول الأوتار ، أو لأن التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالمتنازعين ، وثالث يتوسط بينهما»^(٢).

جاء في (تفسير الرازي) في هذه الآية: «إن أقل ما لا بد منه في المشاورة التي يكون الغرض منها تمهيد مصلحة ثلاثة ، حتى يكون الاثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات ، والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما ، فحينئذ تكمل تلك المشورة ويتم ذلك الغرض.

وهكذا في كل جمع اجتمعوا للمشاورة فلا بد فيهم من واحد يكون حكماً مقبول القول ؛ فلهذا السبب لا بد وأن تكون أرباب المشاورة عددهم فرداً.

فذكر سبحانه الفردين الأولين ، واكتفى بذكرهما تنبيهاً على الباقي»^(٣).

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ .

فذكر النجوى أولاً ، ثم ذكر العمل بعد فقال أولاً: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ ﴾ وقال بعد: ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فذكر النجوى والعمل ، فلا يغيب عنه العمل ، كما لا تغيب عنه النجوى.

(١) روح المعاني ٢٨/٢٤ ، وانظر: تفسير البضاوي ٧٢١.

(٢) تفسير البضاوي ٧٢١.

(٣) تفسير الرازي ١٠/٤٩.

لقد قال في هذه الآية: ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ .

فجاء بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ .

وقال في الآية السابقة: ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ .

فجاء بالفاء فقال: (فينبئهم).

ذلك أن هذه الآية فيمن هم في الدنيا فقال: ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ .

فجاء بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ الدالة على التراخي .

أما الآية السابقة فهي في الآخرة ، فقد قال: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ .

فجاء بالفاء الدالة على التعقيب ، وذلك لأنهم في يوم القيامة عند البعث .

فناسب كل تعبير موضعه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

أكد علمه بكل شيء ، وهذا التأكيد مناسب لما ذكر علمه بما في السموات وما في الأرض وما يكون من النجوى والعمل ، ومناسب لما ذكره في الآية السابقة من شهادته على كل شيء .

قد تقول: لقد أكد ربنا سبحانه في هذه الآية علمه بكل شيء فقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فأكده بـ ﴿ إِنَّ ﴾ .

وقد يقول: ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلا يؤكد ، وذلك نحو ما جاء في

آية الدّين من سورة البقرة ، فقد قال سبحانه في الآية : ﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا
تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقُكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ
وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

ونحو قوله سبحانه في آية النور : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥] .

وغير ذلك من الآيات .

فما الفرق؟

فنقول: إن السياق في كل ما ورد من نحو ذلك ليس في العلم
الشامل ، فإن آية الدين إنما هي في كتابة الدين والإشهاد في المبيعات ،
وليس السياق في سعة علم الله وإحاطته بكل شيء ، فلم يؤكد .

وكذلك في آية النور وهي قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ﴾ .

إلى قوله : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

والسياق ظاهر أنه ليس في إحاطة علم الله بكل شيء وعلمه بكل
شيء .

قد تقول: ولكنه قال في آية أخرى : ﴿ الْآيَاتُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾
[النور: ٦٤] .

فقال : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ مع أن السياق شبيه بآية المجادلة .

فنقول : إن السياق مختلف .

فقد ذكر في آية النور هذه أنه له ما في السموات والأرض ، فذكر أن له ما فيهما ، ولم يذكر علم ما فيهما .

بخلاف ما جاء في آية المجادلة ، فقد قال فيها : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

فأكد علمه ما فيهما .

وقال في آية النور : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ والخطاب لصحابة الرسول ﷺ فإن السياق فيهم ، فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ . . . ﴾ [الآية : ٦٢] .

ثم قال : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٦٣] .

ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [الآية : ٦٤] .

فالمذكورون في آية النور جزء من المذكورين في آية المجادلة ، وهم جميع الناس .

فناسب التوكيد في آية المجادلة .

وهكذا كل ما ورد في نحو ذلك مما هو غير مؤكد ؛ فإنه ليس في العلم الشامل المحيط .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه ، والله أعلم .

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْتَجِبُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

* * *

قيل : « كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم ، فنهاهم رسول الله ﷺ فعادوا لمثل فعلهم ، وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين ، وتواص بمعصية الرسول ومخالفته »^(١) .

و ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ : الهمزة فيه للتعجيب من حالهم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ بالفعل المضارع للدلالة على تكرار عودهم واستمرارهم فيه^(٢) . وجاء بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ ليدل على التراخي في الرتبة ، فإن العود بعد النهي أدل على المعصية ومخالفة الأمر ، وأدعى إلى التشنيع عليهم ومعاقبتهم . جاء في (التحرير والتنوير) : « و ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ للتراخي الرتبي ؛ لأن عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنه أعظم من ابتداء النجوى ؛ لأن ابتداءها كان إثماً لما اشتملت عليه نجواهم

(١) الكشف ٢٠٩/٣ وانظر : البحر المحيط ٢٣٦/٨ ، روح المعاني ٢٦/٢٨ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٢٨٩/٦ ، روح المعاني ٢٦/٢٨ .

من نوايا سيئة نحو النبي ﷺ والمسلمين .

فأما عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنها فقد زادوا بها تمرداً على النبي ومشاقة للمسلمين»^(١) .

وقال : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُتُوا عَنْهُ ﴾ ولم يقل : (ثم يعودون إليها) أو (لها) ؛ لأن النهي ليس عن أصل النجوى ، وإنما النهي عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وهذا هو ما نهوا عنه كما جاء في الآية ، فقال : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُتُوا عَنْهُ ﴾ لبيان أن المقصود أن النهي إنما هو عن هذا النوع من النجوى ، ولكنهم يعودون إلى ما نهوا عنه ، وليس عن النجوى على العموم .

وقال : ﴿ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ ﴾ أي : يتناجون بما هو إثم في نفسه .

وحقيقة التناجي أنه بما يؤدي إلى الإثم ، وليس هو الإثم نفسه ، ولكنه قال ذلك مبالغة ، فكأن هذا التناجي هو الإثم بعينه .

وقدم الإثم وهو عام يشمل ما بعده وغيره مما هو إثم .

ثم ذكر العدوان ، وهو أخص ؛ لأنه حالة من حالات الإثم ، وقد يكون أشد مما قبله لأنه تعدد على الآخرين .

ثم قال : ﴿ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ وهو أخص ؛ لأنه خاص بالرسول ، أما العدوان فقد يكون عاماً .

وذكر صفة الرسالة ، ولم يقل : (ومعصيتك) بكاف الخطاب ، كما

قال: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ للدلالة على عظم المعصية ؛ فإنها معصية لمن أرسله الله ، وهذه معصية كبيرة ؛ فإن المعصية قد تكون بحسب المعصي ، فإن معصية الملك أو معصية رسول الملك ليست كمعصية واحد من عموم الناس .

فتدرج من العموم إلى الخصوص .

جاء في (نظم الدرر): « ﴿ بِالْإِثْمِ ﴾ أي : بالشيء الذي يكتب عليهم به الإثم بالذنوب وبالكذب وبما لا يحل .

ولما ذكر المطلق أتبعه المقيد بالشدة فقال: ﴿ وَالْعُدُونِ ﴾ أي : العدو الذي هو نهاية في قصد الشر بالإفراط في مجاوزة الحدود .

ولما كان ذلك شراً في نفسه أتبعه الإشارة إلى أن الشيء يتغير وصفه بالنسبة إلى من يفعل معه فيكبر بكبر المعصي فقال: ﴿ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ أي : الذي جاء إليهم من الملك الأعلى ، وهو كامل الرسالية ؛ لكونه مرسلأ إلى جميع الخلق ، وفي كل الأزمان ، فلا نبي بعده ، فهو لذلك يستحق غاية الإكرام^(١) .

﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ .

يحيونه بقولهم : (السام عليك يا أبا القاسم) .

والسام : الموت .

(١) نظم الدرر ٧/٤٩٢ .

ويقولون في أنفسهم: لو كان رسولاً لعذبنا الله تعالى بسبب ما نقول^(١).

وتحية الله هي السلام ، وقد حيا الله بها رسله «وأشير إليها بقوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَسَلِّمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ وما جاء في التشهد: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)^(٢). والملاحظ أن المذكور في الآية من الإثم إنما هو في باب الكلام والحديث.

فالنجوى إنما هي حديث وكلام ، والتحية إنما هي كلام ، وقولهم في أنفسهم إنما هو كلام ، فإنهم يقولون ذلك.

ثم إن النجوى كلام مع الآخرين ، ولا تكون إلا من أكثر من واحد.

والتحية في الآية إنما هي لواحد ، وهو الرسول ﷺ .

والقول في النفس إنما هي قول الشخص لنفسه .

فتدرج من العموم إلى الخصوص أيضاً.

فما تناجوا به ذكر من العموم إلى الخصوص .

والمخاطبون ذكروا من العموم إلى الخصوص .

حتى إن ذكر العذاب متدرج ، فقد قال: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: يكفيهم ذلك. ، ولم يقل كيف.

(١) انظر: تفسير الرازي ٤٩١/١٠ ، روح المعاني ٢٦/٢٨ .

(٢) روح المعاني ٢٦/٢٨ .

ثم قال: ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ فخصص ذلك بالصلي.

وقال: ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ ولم يقل: (يدخلونها) لأن الصلي إنما هو مقاساة الحر وليس مجرد الدخول ، فهو أخص.

﴿حَسَبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ .

فهي تكفي لعذابهم.

﴿يَصَلُّونَهَا﴾ .

يدخلونها ويقاسون حرها.

﴿فَيُنْسَ الْمَصِيرُ﴾ : ما صاروا إليه وهي عاقبتهم . جاء في (البرهان) للكرماني: «قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيُنْسَ الْمَصِيرُ﴾ بالفاء لما فيه من معنى التعقيب. ، أي: فبئس المصير ما صاروا إليه ، وهو جهنم»^(١).

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿حَسَبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيُنْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

وقال في سورة النور: ﴿لَا تَحْزَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَكَ فِي الْأَرْضِ وَمَاؤْنَهُمُ النَّارُ وَلَيْئَسَ الْمَصِيرُ﴾ .

فقال في آية المجادلة: ﴿فَيُنْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

وقال في سورة النور: ﴿وَلَيْئَسَ الْمَصِيرُ﴾ فجاء باللام المؤكدة ، وهي واقعة في جواب قسم مقدر ، فكأنه قال: (والله لبئس المصير).

ولم يأت باللام في آية المجادلة ، فما الفرق ؟ .

والجواب : أن السياق في كل موضع يبين ذلك .

فقد قال في سياق آية النور : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

فذكر سبحانه أنه وعد الذين آمنوا بالاستخلاف في الأرض وتمكين دينهم وأن يبدلهم بعد خوفهم أمناً ، وذلك كله يعني هزيمة الكفر وخذلانه ، ونصر المؤمنين عليهم والتمكين لهم في الأرض .

ثم قال : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : لا يستطيعون الهرب منا ، وأنهم يفوتوننا فلا ندركهم ، فنحن ندركهم أينما هربوا . جاء في (تفسير أبي السعود) في هذه الآية : «أي : لا تحسبنهم معجزين الله عن إدراكهم وإهلاكهم في قطر من أقطار الأرض بما رحبت وإن هربوا كل مهرب»^(١) .

فهم منهزمون في الدنيا ، هاربون مخذولون ، وفي الآخرة مأواهم النار ، والهارب يحتاج إلى مأوى يأوي إليه ، فذكر أن مأواهم النار ، فبئس المصير مصيرهم في الدنيا والآخرة .

ففي الدنيا الهزيمة والذل ، وفي الآخرة النار ، فأكد سوء مصيرهم .

(١) تفسير أبي السعود ٧١/٥ .

جاء في (تفسير أبي السعود): « ﴿ وَلَيْشَ الْمَصِيرُ ﴾ جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف ، أي : وبالله لبش المصير هي ، أي : النار . وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيراً لهم إثر نفي قوتهم بالهرب في الأرض كل مهرب من الجزالة مالا غاية وراءه ، فله در شأن التزليل^(١) .

وليس السياق كذلك في آية المجادلة ، وإنما السياق في النجوى كما مر ، فكان كل تعبير هو المناسب في سياقه .

* * *

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَجَاوَزُوا بِالْبِرِّ وَالْقَوَىٰ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

* * *

خاطب المؤمنين أنهم إذا تناجوا في خلواتهم فلا يتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كما يفعل المنافقون ، و«بدأ بالإثم لعمومه ، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس ؛ إذ هي ظلمات العباد ، ثم ترقى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك»^(٢) .

وجاء في (التفسير الكبير): « ﴿ فَلَا تَلْتَجُوا بِالْإِثْمِ ﴾ وهو ما يقبح مما

(١) تفسير أبي السعود ٥ / ٧١ .

(٢) البحر المحيط ٨ / ٣٣٦ .

يُخَصِّهِمْ ، ﴿ وَالْعُدُونِ ﴾ وهو يؤدي إلى ظلم الغير ، ﴿ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ وهو ما يكون خلافاً عليه .

وأمرهم أن يتناجوا بالبر الذي يضاد العدوان ، وبالتقوى ، وهو ما يتقى به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصي^(١) .

ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه لم يستعمل (المعصية) إلا في معصية الرسول ، واستعمل (العصيان) عاماً ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات : ٧]^(٢) .

فاستعمل في الآية : ﴿ الْفُسُوقَ ﴾ ولم يستعمل : (الفسق) ذلك أن الفسوق استعمله القرآن لما هو أعم من الفسق .

فإن (الفسق) استعمله القرآن في سياق الأطعمة ، وبخاصة الذبائح .

أما (الفسوق) فاستعمله في الخروج عن طاعة الله عامة^(٣) .

فاستعمل (الفسوق) وهو عام مع (العصيان) وهو عام .

ونظير ذلك في الخاص والعام : المغفرة والغفران ، والمرضاة والرضوان ، وغيرهما^(٤) .

﴿ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ .

البر يقابل الإثم والعدوان ، فهو جماع للخير ما كان للنفس وما كان

(١) التفسير الكبير ٤٩٢/١٠ .

(٢) انظر : كتابنا (من أسرار البيان القرآني) ١٨ .

(٣) من أسرار البيان القرآني ٢٠ .

(٤) انظر : (من أسرار البيان القرآني) ص ٧ وما بعدها .

للغير ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

﴿ وَالنَّقَوَّى ﴾ : « حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور »^(١) .

ومن ذلك اتقاء معصية الرسول ، فاتقاء معصية الرسول إنما هو من التقوى . جاء في (تفسير البيضاوي) : « وتناجوا بالبر والتقوى بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول »^(٢) .

لقد طلب ربنا هاهنا التناجي بالبر والتقوى ، والنهي عن التناجي بالإثم والعدوان ، وطلب في موضع آخر التعاون على البر والتقوى ، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان ، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢] .

والتناجي قول ، والتعاون عمل .

فجمع الخير كله في الأمر والنهي في القول والعمل .

وقد ذكر في آية المجادلة التناجي .

وذكر في سورة المائدة التعاون .

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (وقي) .

(٢) تفسير البيضاوي ٧٢١ وانظر : روح المعاني ٢٨/٢٧ .

لأن السياق في المجادلة إنما هو في التناجي والنجوى .

وأما السياق في المائدة ففي الأعمال من الأمر بالوفاء بالعقود وما أحله الله لهم من الأنعام وفي ابتغاء الفضل من الله والرضوان ونحو ذلك .
فناسب الأمر بالتعاون على الخير ، والنهي عن التعاون على السوء .

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

« فيما تأتون وتذرون »^(١) .

لقد أمر ربنا في الآية الكريمة بالتناجي بالبر والتقوى ، ثم قال :
﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، فإن الأمر بالتناجي بالتقوى إنما ذلك بالقول .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يعني : الأمر بالتقوى في العمل والقول ،
فجمع في ذلك طلب التقوى في القول والعمل . جاء في (نظم الدرر) :
« ولما كانت التقوى أم المحاسن أكدها ونبه عليها بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾
أي : اقصدوا قصداً يتبعه العمل أن تجعلوا بينكم وبين سخط الملك
الأعظم وقاية »^(٢) .

﴿ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

أي : تحشرون إليه خاصة لا إلى غيره « أي : تجمعون بأيسر أمر

(١) تفسير البضاوي ٧٢١ وانظر : روح المعاني ٢٨ / ٢٧ .

(٢) نظم الدرر ٧ / ٤٩٤ .

وأسهله بقهر وكره ، وهو يوم القيامة»^(١) «فيجازيكم على ذلك»^(٢) .

وقدم الجار والمجرور (إليه) على الفعل (تحشرون) لإفادة الحصر .

قد تقول : لقد قال في هذه الآية ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

فذكر الحشر إليه .

وقال في آية المائدة : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فوصفه بأنه

شديد العقاب .

فلم ذاك؟

والجواب أن ما ذكره في المائدة من المحظورات أكثر وأشد مما ذكره

في المجادلة .

فقد نهى في المجادلة عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .

وأما في المائدة فقد نهى عن التعاون على الإثم والعدوان .

والتعاون على الإثم والعدوان أشد من التناجي في ذلك ، فإن التناجي

إنما هو قول ، وأما التعاون فهو فعل للإثم والعدوان والتعاون عليه .

وذكر إضافة إلى ذلك النهي عن أن يحلّوا شعائر الله وما ذكره من نحو

ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ الْحَرَامَ

وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ .

ثم نهاهم عن أن يحملهم بغضهم لقوم أسأوا إليهم على العدوان

(١) نظم الدرر ٧/ ٤٩٤ .

(٢) روح المعاني ٢٨/ ٢٧ .

فَقَالَ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ .

فلما زاد في ذكر المحظورات والنهي عنها زاد في التحذير فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

* * *

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠] .

* * *

﴿النَّجْوَى﴾ معرفة بأل العهدية ، وهي إشارة إلى ما ذكره من النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .

و ﴿إِنَّمَا﴾ للقصر ، أي: ماهذه النجوى إلا من الشيطان ، وليست من غيره وذلك ليحزن الذين آمنوا ويغيظهم . جاء في (الكشاف): ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان بدليل قوله تعالى: ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، والمعنى: أن الشيطان يزينها لهم ، فكأنها منه ليغيظ الذين آمنوا ويحزنهم^(١) .

﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ «أي: ليس الشيطان أو التناجي

(١) الكشاف ٣/٢٠٩ وانظر: البحر المحيط ٨/٢٣٦ .

بضار المؤمنين (شيئاً) من الأشياء ، أو شيئاً من الضرر (إلا بإذن الله) أي :
إلا بإرادته ومشئته عز وجل»^(١) .

وجاء بالباء في الخبر للتوكيد .

وقال : ﴿ بَضَّارَهُمْ ﴾ باسم الفاعل الدال على الثبوت ، ولم يقل :
(ولا يضرهم شيئاً) بالفعل للدلالة على نفي الضرر عليهم منه على وجه
الدوام إلا بإذنه سبحانه .

والملاحظ في التعبير القرآني أنه ينفي الضرر من الشيطان بالصيغة
الاسمية الدالة على الدوام والثبوت ، كما في هذه الآية ، وكما في قوله
تعالى في تعليم الشياطين السحر للناس : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ . . . فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
وَمَا هُمْ بِضَّارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

والضمير (هم) قيل يعود على السحرة ، وقيل : يعود على
الشياطين^(٢) .

وسواء عاد الضمير على السحرة أم على الشياطين فإن السحر من عمل
الشيطان ، وإنه يفعل ذلك لعداوته لبني آدم .

وهو ينفي الضرر من غيره بالفعل نحو : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا
يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ١٢٠] ، وقوله : ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ

(١) روح المعاني ٢٨/٢٧ وانظر : تفسير أبي السعود ٢٨٩/٦ .

(٢) انظر : البحر المحيط ١/٣٣٢ ، روح المعاني ١/٣٤٤ .

شَقِيءٌ ﴿ [النساء: ١١٣] ، وقوله ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا
أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] .

وذلك أن الشيطان عدو دائم للإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ
لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف:] ، وقال ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُزْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾
[فاطر: ٦] .

فهو يريد الضرر بالإنسان على جهة الدوام ولا سيما المؤمنين ، فنفي
الضرر منه بالصيغة الاسمية الدالة على الدوام .

وقال : ﴿ شَيْئًا ﴾ فأطلقه ولم يقيده بشيء ؛ إذ يحتمل أن يكون
المعنى أنه ليس بضارهم شيئاً من الأشياء ، ولا بشيء من الضرر .
والمعنيان مرادان ، فهو ليس بضارهم شيئاً من الأشياء ولا شيئاً من
الضرر إلا بإرادة الله سبحانه .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا عَلَى غَيْرِهِ .

﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في جميع أمورهم ، فهو حسبهم وكافيتهم ، كما
أخبر ربنا بقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] .

* * *

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ
وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١) .

* * *

لما ذكر سبحانه أدب التناجي وجههم إلى أدب المجالس ، ولما نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر أمرهم الآن بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة^(١) .

جاء في (روح المعاني): «ولما نهى سبحانه عن التناجي والسرور علم منه الجلوس مع الملاء ، فذكر جل وعلا آدابه بعده بقوله عز من قائل : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ...﴾ إلخ .

أو لما نهى عز وجل عما هو سبب للتباغض والتنافر أمر سبحانه بما هو سبب للتواد والتوافق^(٢) .

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ .

أي : إذا قال لكم قائل : توسعوا في المجالس ، أي : فليفسح بعضكم عن بعض .

﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .

لم يقيد سبحانه بم يفسح الله لهم ؛ بل جعله مطلقاً عاماً في كل ما تحسن الفسحة فيه ، فهو «مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك»^(٣) .

وجاء في (البحر المحيط) أي : «في رحمته أو في منازلكم في الجنة

(١) التفسير الكبير ٤٩٣/١٠ .

(٢) روح المعاني ٢٨/٢٧ ، وانظر : البحر المحيط ٨/٢٣٦ .

(٣) الكشف ٣/٢١٠ .

أو في قبوركم أو في قلوبكم أو في الدنيا والآخرة أقوال»^(١).

والظاهر - والله أعلم - أن الفسحة في كل ما ذكر وما لم يذكر مما تحسن الفسحة فيه ، فإن ربنا سبحانه أطلق الفسحة ولم يقيد بها بشيء ، وذلك من عظيم رحمته وكرمه سبحانه .

﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَاَنْشُرُوا ﴾ .

«أي : انهضوا للتوسعة على المقبلين»^(٢).

﴿ فَاَنْشُرُوا ﴾ أي : فانهضوا ولا تثبطوا»^(٣).

فأمر بالتفسيح أولاً ثم بالنهوض إذا قيل لهم ذلك ، فبدأ بما هو أيسر على النفس وعلى الجالسين وبحسب ما يقتضيه المقام .

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ .

أي : يرفع الله المؤمنين والذين أوتوا العلم درجات ، فليس في الامتثال لذلك انتقاص لهم ، وإنما فيه رفعة لهم ، يرفعهم الله بذلك درجات .

وفي ذلك إلماح إلى أن العلماء ينبغي أن ينهضوا للتوسعة مثل باقي المؤمنين ، ولا ينبغي أن يمنعهم علمهم واعتدادهم به من ذلك فيكون العلم مانعاً لهم من الامتثال لما أمر الله به ، فيجعلون لأنفسهم منزلة أعلى من باقي المؤمنين .

(١) البحر المحيط ٢٣٦/٨ ، وانظر : روح المعاني ٢٨/٢٨ .

(٢) الكشف ٢١٠/٣ .

(٣) روح المعاني ٢٨/٢٨ .

وقال: ﴿ دَرَجَتٌ ﴾ ولم يقل: (درجة) وذلك بحسب إيمانهم وعلمهم وامتثالهم.

«وانتصب ﴿ دَرَجَتٌ ﴾ على أنه ظرف مكان يتعلق بـ (يرفع) أي: يرفع الله الذين آمنوا رفعاً كائناً في درجات.

ويجوز أن يكون نائباً عن المفعول المطلق لـ (يرفع) لأنها درجات من الرفع، أي: مرافع»^(١).

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

لقد قال سبحانه في هذه الآية: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فلم يؤكد خبرته بعملهم ، في حين قال في موضع آخر: ﴿ وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا لِيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١١] فأكد ذلك بـ (إِنَّ) وذلك قوله: ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وذلك أنه ذكر في آية هود الأعمال وتوفية أصحاب العمل كلهم أعمالهم كلها ، فناسب ذلك تأكيد خبرته بأعمالهم .

هذا إضافة إلى أنه أكد أول الآية بـ (إِنَّ) فقال: ﴿ وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا ﴾ ، وأكد باللام في ﴿ لَمَّا ﴾ ، وبنون التوكيد الثقيلة في ﴿ لِيُوفِيَنَّهُمْ ﴾ فناسب توكيد الخبرة بالعمل .

وليس السياق كذلك في آية المجادلة ، فالآية في الأمر بالتفصح في المجالس ، وهذا عمل من الأعمال .
فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٧)

* * *

قيل: إن قوماً من المؤمنين ومن غيرهم أيضاً من المنافقين واليهود كثرت مناجاتهم للرسول في غير حاجة ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يرد أحداً ، فنزلت مشددة عليهم أمر المناجاة^(١) .
ثم نسخت .

جاء في (روح المعاني): «أي: إذا أردتم المناجاة معه عليه الصلاة والسلام لأمر ما من الأمور ﴿ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ فتصدقوا قبلها... وفي هذا الأمر تعظيم الرسول ﷺ ونفع للفقراء وتمييز بين المخلص والمنافق ، ومحبة الآخرة ومحبة الدنيا ، ودفع للتكاثر صلى الله تعالى عليه وسلم من غير حاجة مهمة... ونسخ بقوله تعالى: ﴿ ءَأَسْفَقْتُمْ ﴾ إلخ»^(٢) .

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ .

«أي: تقديم الصدقات خير لكم لما فيه من الثواب ، و(أطهر) أي: أزكى لأنفسكم»^(٣) .

(١) انظر: البحر المحيط ٢٣٧/٨ ، فتح القدير ١٨٥/٥ .

(٢) روح المعاني ٣٠/٢٨ .

(٣) روح المعاني ٣١/٢٨ .

لقد أفرد كاف الخطاب في قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ولم يقل: (ذلكم) كما في آيات أخرى، من نحو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ وغيرها من الآيات.

وقد ذكرنا في كتابنا (معاني النحو) الغرض من الإفراد والجمع لكاف الخطاب في (ذلك) و(ذلكم) في القرآن الكريم.

فقد يستعمل القرآن الجمع للتوكيد، وقد يستعمله بحسب المخاطبين من حيث الكثرة والقلة، فيستعمل الجمع للدلالة على كثرة المخاطبين، والإفراد للدلالة على قلتهم بالنسبة إلى غيرهم، أو غير ذلك^(١).

جاء في (معاني النحو): «وقد استعمل القرآن الكريم الخطاب بالجمع وبالإفراد للتمييز بين مجموعتين.

فقد تكون مجموعة أكبر من مجموعة فيستعمل لخطاب الجمع الكثير بصورة الجمع، وللقليل بصورة الإفراد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ فإن الآية الأولى لخطاب المؤمنين وتكليفهم إلى قيام الساعة.

وأما الآية الأخرى فلخطاب الصحابة وحدهم ولا يشمل غيرهم من المسلمين، ثم إنه حكم ما لبث أن نسخ.

فجاء لما هو عام شامل بصيغة الجمع، ولما هو خاص بالإفراد^(٢).

(١) انظر: كتابنا (معاني النحو) ١ / ٩٤ وما بعدها (كاف الخطاب).

(٢) معاني النحو ١ / ٩٨ - ٩٩.

وآية البقرة المذكورة إنما هي في حكم من أحكام الطلاق ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٣١) وهو حكم عام لجميع الأمة إلى قيام الساعة كما مر .

فجاء لمن هم أقل ولما هو موقوت غير دائم بـ (ذلك) .
ولمن هم أكثر ولما هو آكد وأدوم بـ (ذلكم) .

* * *

﴿ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَىكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٣) .

* * *

﴿ أَشْفَقْتُمْ ﴾ .

«الإشفاق - هنا - : الفرع من العجز عن الشيء المتصدق به ، أو من ذهاب المال في الصدقة»^(١) .

والمعنى : «أخفتم الفقر لأجل تقديم الصدقات؟»^(٢) .

وجمع الصدقات لكثرة التناجي ، فإن خوف الفقر قد يكون من كثرة

(١) تفسير الثعالبي ٦٩/٤ .

(٢) روح المعاني ٣١/٢٨ .

التناجي أو جمعها ؛ لأن المخاطبين جمع^(١) .

جاء في (روح المعاني) : «جمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة ؛ لأنه ليس مظنة الفقر ، بل من استمرار الأمر وتقديم صدقات. وهذا أولى مما قيل إن الجمع لجمع المخاطبين ؛ إذ يعلم منه وجه أفراد الصدقة فيما تقدم على قراءة الجمهور»^(٢) .

ولعل المراد كلاهما .

أما ما رجحه صاحب (روح المعاني) من أنه جمع الصدقات ؛ لأن الخوف من استمرار الصدقات لا لكثرة المخاطبين مستندلاً بالآية قبلها ، فقد أفرد الصدقة مع أن المخاطبين جمع ، فقد يقال رداً على ذلك أنه لو قال : (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقات) لربما أفهم أن المطلوب تقديم أكثر من صدقة قبل النجوى ، فدفع ذلك الظن بإفراد الصدقة .

﴿ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ «ما أمرتم به وشق عليكم ذلك» ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن رخص لكم المناجاة من غير تقديم صدقة»^(٣) .

فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله فيما أمر ونهى .

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يعلم ظاهرها وباطنها .

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٧٣٢ .

(٢) روح المعاني ٣١ / ٢٨ .

(٣) روح المعاني ٣١ / ٢٨ .

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلم يؤكد الجملة في حين أكد نحو هذه الجملة في أكثر من موطن في القرآن ، فقد قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في الآية الثامنة من سورة المائدة ، وفي الآية الثالثة والخمسين من سورة النور ، وفي الآية الثامنة عشرة من سورة الحشر .

فنقول: إن التوكيد وعدمه - كما هو معلوم - إنما يكون بحسب ما يقتضيه المقام ، فإذا اقتضى المقام التوكيد أكد ، وإلا فلا .
وليس في آية المجادلة ما يقتضي توكيد الخبرة ، في حين أن الآيات الأخرى تقتضي التوكيد .

أما آية المائدة فهي قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

فقد طلب ربنا في هذه الآية من عباده المؤمنين أن يكونوا كثيري القيام لله بحقوقه .

و ﴿قَوَّامِينَ﴾ صيغة مبالغة .

فطلب منهم الاتصاف بذلك على جهة الثبوت والدوام وكثرة القيام لله . والقيام لله يتعلق بحق الله في الأنفس وفي حقوق العباد .

وأن يكونوا شهداء بالعدل ولو على أنفسهم هم ، أو ضد مصالحهم ، فإن ذلك من القيام لله .

وأن لا يحملهم شدة بغضهم لقوم وكرههم لهم ألا يعدلوا بالحكم

أو بالشهادة أو بارتكاب ما لا يحل .

ثم أمرهم علاوة على ذلك فقال : ﴿ اَعِدُّوا لَهُمْ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى ﴾ .

وكل ذلك مما يثقل على النفس .

ثم حذرهم نفسه قائلاً : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

وذلك يدل على عظم وأهمية حقوق العباد ومصالحهم .

فاقتضى ذلك تأكيد خبرته سبحانه بأعمالنا فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وأما آية النور فهي قوله سبحانه في المنافقين : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

والكلام على المنافقين كما ذكرت .

وقد أكد قولهم بالقسم والمؤكدات الأخرى .

فقال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي : أغلظ الأيمان ، وذلك يدل على كثرة

أيمانهم المغلظة ، فقد جاء بالجمع فقال : ﴿ أَيْمَانِهِمْ ﴾ .

وقال : ﴿ لَئِنْ ﴾ باللام الواقعة في جواب القسم .

و ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ بنون التوكيد الثقيلة ولام الجواب .

فناسب أن يقول الله لهم سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ مؤكداً

خبرته بما يعملون كما أكدوا قولهم بالأقسام المغلظة .

وأما آية الحشر فهي قوله سبحانه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَلَتَنْظُرَنَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ .

فقد حذر رب العزة عباده مرتين فقال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وقال: ﴿ وَلَتَنْظُرَنَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ وهي تشمل عموم الأعمال .
ثم قال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

فناسب تكرار التحذير أن يؤكد ربنا سبحانه خبرته بما نعمل ، وليس شيء من ذلك في آية المجادلة .
فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للتعجب من القوم المذكورين ، وهم المنافقون ، وكانوا يتولون اليهود ، وهم الذين غضب الله عليهم كما أخبر ربنا عنهم في عدة آيات ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾ [المائدة: ٦٠] وقوله: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١] وقوله: ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبِ عَلَى غَضَبٍ ﴾ [البقرة: ٩٠] .

فكانوا يوالونهم ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين^(١) .
﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ .

أي : إن هؤلاء المنافقين ليسوا منكم أيها المسلمون .

﴿ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أي : ولا من اليهود ، وإنما هم كالشاة العائرة بين الغنمين كما ذكر الحديث الشريف ، فهم مذبذبون بين ذلك ، كما قال ربنا سبحانه فيهم : ﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ [النساء : ١٤٣]^(٢) .

لقد قال : ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ فنفي بـ (ما) ولم يقل : (ليسوا منكم) لأن (ما) أقوى من (ليس) فهي قد دخلت على الجملة الاسمية ونفتها . وأما القول : (ليسوا منكم) فهي جملة فعلية ، والاسمية أقوى .

ثم إن هذا مناسب لما بعده ، وهو قوله : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ ﴾ ، فناسب حلفهم على الكذب أن ينفي بـ (ما) التي هي رد لقولهم وتوكيد للنفي .

فقد أكد النفي بـ (ما) كما أكدوا قولهم بالحلف .

﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أي : يحلفون على الكذب فيما أسند إليهم من الأفعال التي فعلوها ، فيحلفون أنهم لم يفعلوها ، ويحلفون على ادعاء الإسلام وهم كاذبون .
جاء في (الكشاف) : «أي : يقولون والله إنا لمسلمون ، فيحلفون على

(١) انظر : الكشاف ٢١١/٣ ، روح المعاني ٣٢/٢٨ .

(٢) انظر : الكشاف ٢١١/٣ ، البحر المحيط ٢٣٨/٨ .

الكذب الذي هو ادعاء الإسلام (وهم يعلمون) أن المحلوف عليه كذب بحت»^(١).

إنه لم يقل: (ما هم منكم ولا منهم وإنما هم يكذبون) بل قال: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهم أقسموا على ذلك ، وهذه تسمى (اليمين الغموس) وهي التي تغمس صاحبها في نار جهنم .

واليمين الغموس أن تحلف على أمر وأنت تعلم خلافه .

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: فما فائدة قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ؟

قلت: الكذب أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه ، سواء علم المخبر أو لم يعلم .

فالمعنى أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه ، وهم عالمون بذلك ، متعمدون له ؛ كمن يحلف بالغموس»^(٢) .

وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تكرار الحلف الكاذب^(٣) .

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

أي: أعد الله لهم العذاب الشديد بسبب استمرارهم ، واعتيادهم العمل السيء .

فقوله: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يفيد الماضي المستمر ، أي:

(١) الكشاف ٢/١١١ وانظر: البحر المحيط ٨/٢٣٨ .

(٢) الكشاف ٣/٢١١ .

(٣) انظر: روح المعاني ٢٨/٣٢ .

كانوا مستمرين على الأعمال السيئة ، فناسب ذلك أن يكون عذابهم شديداً. جاء في (الكشاف):

« إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يعني : أنهم كانوا في الزمان الماضي المتطاول على سوء العمل ، مصرين عليه ، أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة^(١).

وجاء في (روح المعاني) : « أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ » بسبب ذلك ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً.

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ما اعتادوا عليه وتمرنوا عليه^(٢).

* * *

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾^(٣).

* * *

أي : اتخذوا أيمانهم وقاية وسترة يتسترون بها من المؤمنين ، ويتقون المؤاخذه عن أفعالهم السيئة وكيدهم للمسلمين.

﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : أعرضوا هم ، وصدوا غيرهم من الناس عن الإسلام «وكانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ، ويضعفون أمر المسلمين عندهم»^(٣).

(١) الكشاف ٢١١/٣.

(٢) روح المعاني ٣٣/٢٨.

(٣) الكشاف ٢١١/٣ ، وانظر : البحر المحيط ٢٣٨/٨.

وجاء في (تفسير الرازي): «أي: اتخذوا إظهار أيمانهم جنة عن ظهور نفاقهم وكيدهم للمسلمين ، أو جنة عن أن يقتلهم المسلمون ، فلما أمنوا من القتل اشتغلوا بصد الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات في القلوب وتقبيح حال الإسلام»^(١).

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .

وهذا وعيد آخر بعذاب آخر لصدهم الناس عن الإسلام ، وكل عمل من أعمال الكفر له عذاب ، وبعضها أشد من بعض .

والعذاب المهين هو العذاب المخزي لهم بإظهاره وخزيه ، فهم تستروا بالأيمن الكاذبة ، ففضحهم الله وأخزاهم بعذابه .

جاء في (الكشاف): «وإنما وعدهم الله العذاب المهين المخزي لكفرهم وصدهم كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]^(٢)» .

وجاء في (روح المعاني): «﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم ، وقيل: الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة ، ويشعر به وصفه بالإهانة المقتضية للظهور فلا تكرر»^(٣) .

وجاء في (التحرير والتنوير): «وقد وصف العذاب أول مرة بشديد ،

(١) تفسير الرازي ٤٩٧/١٠ .

(٢) الكشاف ٢١١/٣ .

(٣) روح المعاني ٣٣/٢٨ .

وهو الذي يجازون به على توليهم قوماً غضب الله عليهم ، وحلفهم على الكذب .

ووصف عذابهم ثانياً بـ (مهين) لأنه جزاء على صدهم الناس عن سبيل الله .

وهذا معنى شديد العذاب لأجل عظيم الجرم ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ .

فكان العذاب مناسباً للمقصد في كفرهم ، وهو عذاب واحد فيه الوصفان ، وكرر ذكره إبلاغاً في الإنذار والوعيد ، فإنه مقام تكرير مع تحسينه باختلاف الوصفين^(١) .

والذي يظهر لي أن هذا عذاب آخر لعمل آخر ، والله أعلم .

* * *

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٧)

* * *

هذه الآية مناسبة لقوله تعالى قبلها : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ «فكما لم تقم أيمانهم العذاب لم تغن عنهم أموالهم ولا أنصارهم شيئاً يوم القيامة»^(٢) .

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨ / ٥٠ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢٨ / ٥٠ .

ومعنى ﴿لَنْ تُغْنِيَهُمْ عَنْهُمْ﴾ لن تنفعهم أو تدفع عنهم وتمنعهم من العذاب^(١).

﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ .

ذكر الأموال والأولاد ؛ لأنها مظنة المنع وجلب المصالح والنصرة ، فذكر المال والقوة ، وبهما تتحقق المنافع ودفع المضار .

فقال لهم : إنه لن تنفعهم أموالهم «التي أعدوها لدفع المضار وجلب المصالح» .

(ولا أولادهم) الذين يتناصرون بهم في الأمور المهمة ، ويعولون عليهم في المهمات المدلهمة ، وتأخيرهم عن الأموال مع توسيط حرف النفي - كما قال شيخ الإسلام - إما لعراققتهم في كشف الكروب ، أو لأن الأموال أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب^(٢) .

وقدم المال لأنه أبلغ في المنع والدفع وجلب المصالح من الأولاد .

جاء في (البحر المحيط) : «ولما كان المال في باب المدافعة والتقرب ، والفتنة أبلغ من الأولاد قدم في هذه الآية ، وفي قوله : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ وفي قوله : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وفي قوله : ﴿وَتَكَاثَرُوا فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وفي قوله : ﴿لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ بخلاف قوله : ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْكُ﴾

(١) انظر : البحر المحيط ٢/ ٣٨٧ ، روح المعاني ٣/ ٩٣ .

(٢) روح المعاني ٣/ ٩٣ .

النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ ﴿١﴾ إِلَى آخِرِهَا ، فإنه ذكر هنا حب الشهوات ، فقدم فيه النساء والبنين على ذكر الأموال ﴿١﴾ .

وأعاد النافي فقال : ﴿ وَلَا أَوْلَدُكُمْ ﴾ للتوكيد ، وليفيد أنه لا تنفع الأموال وحدها ولا الأولاد وحدهم ولا مجموعهم .

فإنه قد يذكر عدم الإغناء للمال ولا يذكر معه الأولاد وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الحجر : ٨٤] وقوله : ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ [الجاثية : ١٠] وقوله : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي ﴾ [الحاقة : ٢٨] وقوله : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : ٢] .

وقد يذكر الأولاد ولا يذكر الأموال كقوله تعالى : ﴿ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ [لقمان : ٣٣] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَيِّهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس :

٣٤-٣٦] .

فذكر الأموال والأولاد جميعاً في الآية ، وذكر أنها لا تغني من الله شيئاً في كل الأحوال . جاء في (نظم الدرر) : «وأكد بإعادة النافي ليفيد النفي عن كل حالة وعن المجموع ، فيكون أصرح في المرام» ﴿٢﴾ .

وقوله : (من الله) أي : من عذابه وبأسه ، أو من جهته ، ف (من) لا ابتداء الغاية ﴿٣﴾ .

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٨٧ .

(٢) نظم الدرر ٢/ ٢٨ .

(٣) انظر : البحر المحيط ٢/ ٣٨٧-٣٨٨ ، نظم الدرر ٢/ ٢٨ .

وزهد الزمخشري إلى أنها بمعنى بدل ، أي : بدل رحمته وطاعته ،
وبدل الحق^(١) .

والتعبير يحتمل ، وكان معنى الابتداء أظهر ، والله أعلم .
﴿ شَيْئًا ﴾ .

يحتمل أن يكون المعنى شيئاً من الإغناء ، فيكون النصب على
المصدرية ، وأن يكون المعنى : شيئاً من الأشياء ، فيكون مفعولاً به^(٢) .
والمعنيان مرادان ، فهي لا تغني من الله شيئاً من الإغناء ، ولا شيئاً من
الأشياء ، والله أعلم .

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي : ملازموها ملازمة دائمة ؛ ولذا أكد ذلك بقوله :
﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٣) .

وجاء بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت ، و(هم) يحتمل أن يكون
ضمير فصل للاختصاص ، ويحتمل أن يكون مبتدأ .
قد تقول : لقد قال في آية المجادلة هذه ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾ .

وقال في آل عمران : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

(١) انظر : الكشاف ٣١١/١ .

(٢) انظر : البحر المحيط ٣٨٨/٢ ، روح المعاني ٩٣/٣ .

(٣) انظر : البحر المحيط ١٧١/١ .

فقال في آية المجادلة: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ .

وقال في آية آل عمران: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بذكر الواو.

فما الفرق؟

فنقول: إن السياق في كل تعبير يوضح ذلك.

فسياق الكلام في آل عمران إنما هو في أهل الكتاب ، ومما قاله في السياق فيهم: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ .

فذكر أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم شيئاً في الدنيا ، ذلك أنهم سيغلبون فيها ، وفي الآخرة هم أصحاب النار.

فدل ذلك على أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم في الدنيا ولا في الآخرة.

ونحو ذلك قوله تعالى في آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ .

وهو إشارة إلى أنهم سيغلبون في الدنيا ، فلا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم فيها ، وفي الآخرة هم وقود النار.

ويدل على ذلك السياق ، فقد قال بعدها: ﴿كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قل للذين كفروا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ .

فقد ذكر أنهم كذاب آل فرعون والذين من قبلهم ، فقد عاقبهم الله

سبحانه في الدنيا وسيعاقبهم في الآخرة.

وكما قال في الآية بعدها: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ . فهم سيغلبون في الدنيا ويحشرون إلى جهنم في الآخرة ، فلا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم في الدنيا ولا في الآخرة.

فالواو عطف أو استئناف.

جاء في (نظم الدرر) أنهم «ليست مغنية عنهم تلك النعم شيئاً ، وأنهم مغلوبون لا محالة في الدنيا ، ومحشورون في الآخرة إلى جهنم»^(١).

أما آية المجادلة فهي في المنافقين ، فذكر عدم الإغناء على العموم ، ولم يعطف فإنهم لم يحاربوا الرسول في الدنيا حرب قتال ، بل كانوا يظهرون له أنهم معه.

فجاء بالتعبير عاماً يعم الدنيا والآخرة في عدم الإغناء.

ولم يعطف أو يستأنف ؛ فإنهم إن نجوا في الدنيا فلن ينجوا في الآخرة ، فناسب كل تعبير سياقه.

* * *

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا يَأْتِيَهُمُ الْكَذِبُ ﴾ (١٨) .

* * *

«هذا متصل بقوله ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ إلى قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾»^(١).

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ فلا يترك أحداً منهم .

وقوله: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ﴾ أي: يحلفون لله تعالى في الآخرة على أنهم مسلمون وأنهم لم يكونوا مشركين ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾^(٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿[الأنعام: ٢٢-٢٣] .

﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا على أنهم منكم ، كما أخبر ربنا سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾^(٣) [التوبة: ٥٦] .

و«ليس العجب من حلفهم لكم ، فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر ، وأن لهم نفعاً في ذلك دفعاً عن أرواحهم ، واستجرار فوائد دنيوية... ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة... والمراد وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونتهم عليه ، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل ، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾»^(٣).

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: «يحسبون في الآخرة (أنهم) بتلك

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨ / ٥٢ .

(٢) انظر: تفسير الرازي ٤٩٨ / ١٠ .

(٣) الكشف ٢١١ / ٣ .

الأيمان الفاجرة على شيء من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه في الدنيا»^(١).

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ «البالغون في الكذب إلى غاية لا مطمح وراءها، حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب»^(٢) «وزعموا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه عز وجل كما تروجه عند المؤمنين»^(٣).

وقد أكد كذبهم بحرف التنبيه (ألا) وحرف التوكيد (إن) وضمير الفصل الذي يفيد الاختصاص والقصر، وبالتعريف، أي: هم الكاملون في الكذب، البالغون فيه أبعد الحدود.

* * *

﴿ اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَأَنَّهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾^(١٩).

* * *

﴿ اسْتَحْذَرُوا عَلَيْهِمْ ﴾.

أي: استولى عليهم وغلب على نفوسهم وأحاط بهم من كل جهة حتى أطاعوه في كل ما يريده منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه^(٤).

(١) روح المعاني ٣٣/٢٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٢٩٢/٦ وانظر: تفسير البيضاوي ٧٢٣، روح المعاني ٣٣/٢٨.

(٣) روح المعاني ٣٣/٢٨.

(٤) انظر: الكشاف ٢١٢/٣، البحر المحيط ٢٣٨/٨.

﴿ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ .

أي : أنساهم «أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بألسنتهم»^(١).

وقد عطف بالفاء للدلالة على السببية والترتيب والتعقيب بحيث لم يجعل لهم مهلة في ذلك ، فهو لم يقل : (وأنساهم) أو : (ثم أنساهم).

﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ .

أي : جنده وأتباعه^(٢).

﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

«أي : الموصوفون بالخسران الذي لا غاية وراءه ، حيث فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، وأخذوا بدله العذاب الأليم»^(٣).

وجاء في (فتح القدير) : « ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : الكاملون في الخسران ، حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران ؛ لأنهم باعوا الجنة بالنار ، والهدى بالضلالة ، وكذبوا على الله وعلى نبيه ، وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة»^(٤).

وقد جاء بـ (ألا) التي للتنبيه ، وأكد بـ (إن) وبضمير الفصل الذي يفيد القصر والتوكيد ، وعرف (الخاسرين) ولم يقل : (ألا إن حزب الشيطان

(١) الكشاف ٢١٢/٣ ، البحر المحيط ٢٣٨/٨ .

(٢) الكشاف ٢١٢/٣ ، تفسير أبي السعود ٢٩٣/٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢٩٣/٦ .

(٤) فتح القدير ١٨٨/٥ .

خاسرون) للدلالة على عظم الخسارة ، فكأنه قد حصر الخسران فيهم ، فلا أحد أخسر منهم .

هذا إضافة إلى أنه أظهر حزب الشيطان وكرره ولم يأت بالضمير الذي يعود عليهم ، فإنه قال : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ ﴾ ولم يقل : (أولئك حزب الشيطان ألا إنهم) لغرض التوكيد ، ولإفادة أن حزب الشيطان على العموم في كل مكان وزمان هم الخاسرون ، وليس هؤلاء المذكورون فقط ، فإنه لو قال : (ألا إنهم هم الخاسرون) لربما أفهم أن هذا الخسران مخصوص بالمذكورين ؛ لأن الضمير يعود عليهم .

فكان التوكيد بالألا وإن وإظهار ما يمكن إضماره وضمير الفصل وتعريف الخاسرين بأل . جاء في (تفسير أبي السعود) : «وفي تصدير الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق وإظهار المتضايفين معا في موقع الإضمار بأحد الوجهين وتوسط ضمير الفصل من فنون التأكيد ما لا يخفى»^(١) .

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ ﴾ (٢٠)

* * *

ذكر الذين يحادون الله ورسوله في آية سابقة ، وقد ذكر أنهم كتبوا كما كتبت الذين من قبلهم ، أي : أذلوا وأخزوا وأن لهم عذاباً مهيناً (الآية ٥) .

وقد ذكر في هذه الآية أنهم في الأذلين ، أي : «في جملة من هو أذل

(١) تفسير أبي السعود ٦/٢٩٣ .

خلق الله ، لا ترى أحداً أذل منهم»^(١) .

وقال عنهم : إنهم في الأذلين ، ولم يقل : (أولئك هم الأذلون) ذلك أن هناك من هم من الأذلين غيرهم ، وهم الذين كبتوا من الأمم السابقة ممن حاد الله ورسله ، وممن سيأتي فيما بعد .

فناسب أن يقول : ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أي : في جملتهم «وذلك في الدنيا والآخرة»^(٢) .

* * *

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢١) .

* * *

﴿ كَتَبَ اللَّهُ ﴾ .

قيل : أي : في اللوح المحفوظ ، أو (كتب) بمعنى قضى^(٣) . والغلبة قد تكون بالحجة والبرهان ، وهي ثابتة لجميع الرسل ، أو بالسيف أو بكليهما . وقد تكون الغلبة للرسل بإهلاك المعاندين ، كما هو شأن كثير من الأقوام التي أهلكها ربنا انتصاراً لرسله .

جاء في (تفسير الرازي) : « ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ : غلبة جميع الرسل بالحجة مفاضلة ؛ إلا أن منهم من ضم إلى الغلبة بالحجة

(١) الكشف ٢١٢/٣ ، البحر المحيط ٢٣٨/٨ .

(٢) نظم الدرر ٥٠٦/٧ .

(٣) انظر : الكشف ٢١٢/٣ ، البحر المحيط ٢٣٩/٨ .

الغلبة بالسيف ، ومنهم من لم يكن كذلك»^(١).

وجاء في (روح المعاني): «﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي: أثبت في اللوح المحفوظ ، أو قضى وحكم.

وعن قتادة قال: وأياً ما كان فهو جارٍ مجرى القسم ؛ فلذا قال سبحانه: «﴿لَا غَلَبَ لَنَا وَأَنَا وَرُسُلِي﴾ أي: بالحجة والسيف وما يجري مجراه ، أو بأحدهما.

ويكفي في الغلبة بما عدا الحجة تحقيقها للرسول عليهم السلام في أزمنتهم غالباً ، فقد أهلك سبحانه الكثير من أعدائهم بأنواع العذاب ، كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم. والحرب بين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين ، وإن كان سجالاً ، إلا أن العاقبة كانت له عليه الصلاة والسلام ، وكذا لأتباعهم بعدهم»^(٢).

وقد أكد ربنا غلبته وغلبة رسله باللام الواقعة في جواب القسم ونون التوكيد الثقيلة ، ذلك أن العرب قد تجري (كتب) مجرى القسم ، فيجواب بما يجاب به القسم. جاء في (معاني القرآن) للفراء: «الكتاب يجري مجرى القول ، تدخل فيه أن وتستقبل بجواب اليمين»^(٣).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي: قضى وأثبت في اللوح ، وحيث جرى ذلك مجرى القسم أجيب بما يجاب به ، فقيل:

(١) تفسير الرازي ٤٩٨/١٠.

(٢) روح المعاني ٣٤/٢٨.

(٣) معاني القرآن للفراء ١٤٢/٣.

﴿لَا غَلَبَ لَنَا أَنَا وَرُسُلُنَا﴾ أي: بالحجة والسيف وما يجري مجراه ، أو بأحدهما. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿[الصفات: ١٧١ - ١٧٣]﴾ (١).

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

أي: إن الله قوي على نصره أنبيائه وحزبه .

﴿عَزِيزٌ﴾ يمنع حزبه من أن يذل ، غالب لا يدفعه أحد عن مراده (٢) .
وقد أكد قوته وعزته بـ (إن) ، وذلك أنه لما ذكر غلبته وغلبة رسله
ناسب أن يؤكد ربنا قوته وعزته .

ألا ترى أنه سبحانه قال في موضع آخر: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩] .

فقال: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ فلم يؤكد ، وذلك أن السياق في
الشورى في لطفه بعباده ورزقه لهم ، فلا يستدعي ذلك توكيدهما (٣) .

وقد يؤكد بأكثر من مؤكد إذا اقتضى ذلك ، وذلك نحو قوله سبحانه:
﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] لأن السياق يقتضي ذاك (٤) .

* * *

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

(١) تفسير أبي السعود ٢٩٣/٦ ، وانظر: روح المعاني ٣٤/٢٨ .

(٢) انظر: البحر المحيط ٢٣٩/٨ ، تفسير الرازي ٤٩٨/١٠ .

(٣) انظر: كتابنا (على طريق التفسير البياني) ٢٤٦/٣ - ٢٤٧ .

(٤) انظر: كتابنا (التعبير القرآني) ١٧٥ .

وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ
 كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا
 إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢] .

* * *

مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، فإنه بعد أن ذكر الذين يحادون الله
 ورسوله ويتولون قوماً غضب الله عليهم ، ذكر المؤمنين وصفاتهم وأنهم
 لا يوادون من حاد الله ورسوله أياً كانت قرابته لهم وصلته بهم. فلا يصح
 بحال من الأحوال أن يكون أحد يؤمن بالله واليوم الآخر موالياً لمن حاد
 الله ورسوله ولو كان أقرب الناس إليه .

وفي هذا ما فيه من الزجر والمبالغة في النهي .

جاء في (الكشاف): «من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوالون
 المشركين .

والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد
 بحال ، مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملاسته»^(١) .

وجاء في (النكت والعيون): «وفيه وجهان :

أحدهما : أنه خارج مخرج النهي للذين آمنوا أن يوادوا من حاد الله
 ورسوله .

الثاني : أنه خارج مخرج الصفة لهم والمدح بأنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ، وكان هذا مدحاً^(١) .

«وقدم الآباء ؛ لأنه يجب على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف .

وثنى بالأبناء ؛ لأنهم أعلق بهم لكونهم أكبادهم ، وثلث بالإخوان ؛ لأنهم الناصرون لهم . . . وختم بالعشيرة ؛ لأن الاعتماد عليهم والتناصر بهم بعد الإخوان غالباً»^(٢) .

﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ .

أي : أثبتته الله تعالى فيها^(٣) .

﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ .

أي : قواهم برحمته وهداه ، ونور منه . فالضمير في قوله (منه) يعود على الله .

قيل : ويجوز أن يعود الضمير على الإيمان ، أي : قواهم بنور الإيمان ، فإن الإيمان سبب لحياة القلوب . جاء في (الكشاف) :
« ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ بلطف من عنده حييت به قلوبهم .

(١) النكت والعيون ٢٥٠/٤ .

(٢) روح المعاني ٣٥/٢٨ ، وانظر : البحر المحيط ٢٣٩/٨ .

(٣) الكشاف ٢١٢/٣ .

ويجوز أن يكون الضمير للإيمان ، أي : بروح من الإيمان ، على أنه في نفسه روح لحياة القلوب»^(١).

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بطاعتهم له .

﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بما أوتوه عاجلاً وآجلاً في الدنيا والآخرة^(٢).

جاء في (النكت والعيون) : « رضي الله عنهم في الدنيا بطاعتهم .

﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : رضوا عنه في الآخرة بالثواب .

الثاني : رضوا عنه في الدنيا بما قضاه عليهم فلم يكرهوه »^(٣).

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي : « أنه تعالى عدد نعمه على

المؤمنين ، فبدأ بقوله : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ ...

والنعمة الثانية قوله : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ ...

النعمة الثالثة : ﴿ وَيَدْخُلُهُمُ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

وهو إشارة إلى نعمة الجنة .

النعمة الرابعة : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وهي نعمة الرضوان ،

وهي أعظم النعم وأجلّ المراتب .

ثم لما عدد هذه النعم ذكر الأمر الرابع من الأمور التي توجب ترك

الموادة مع أعداء الله فقال : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

(١) الكشف ٢١٢/٣ وانظر : تفسير البضاوي ٧٢٣ ، تفسير أبي السعود ٢٩٣/٦ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٢٩٣/٦ ، روح المعاني ٣٦/٢٨ .

(٣) النكت والعيون ٢٩٣/٦ .

الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ وهو في مقابلة قوله فيهم: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ (١).

وقوله: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المختصون بالفلاح، فليس لغيرهم فلاح.

قد تقول: لقد قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

فختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وختم آية المجادلة بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فما الفرق؟

فنقول: إن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

فإن سياق آيات المائدة في استعانة الذين في قلوبهم مرض باليهود والنصارى واتخاذهم أولياء؛ ليحتموا بهم وينصروهم، كما أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

فقال لهم ربنا: إنه من يتول الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون، وليس الذين يتولون الكافرين.

فآية المائدة في النصرة والغلبة، فختمها بقوله: ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ وهو في مقابلة قوله فيهم: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١).

وقوله: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المختصون بالفلاح، فليس لغيرهم فلاح.

قد تقول: لقد قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

فختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وختم آية المجادلة بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فما الفرق؟

فنقول: إن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

فإن سياق آيات المائدة في استعانة الذين في قلوبهم مرض باليهود والنصارى واتخاذهم أولياء؛ ليحتموا بهم وينصروهم، كما أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

فقال لهم ربنا: إنه من يتول الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون، وليس الذين يتولون الكافرين.

فآية المائدة في النصر والغلبة، فختمها بقوله: ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مناسبة هذه السورة لما قبلها ، وهي سورة المنافقون ، ظاهرة في أكثر من موضع :

١ - فقد «ذكر سبحانه المؤمنين والكافرين في خاتمة سورة (المنافقون) فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢) .

وذكر المؤمنين والكافرين في أول سورة التغابن فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [الآية : ٢] .

٢ - قال في خاتمة سورة المنافقون: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (١) .

وقال في أول سورة التغابن: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢) فذكر علمه بالعمل في الموضعين ، ثم ذكر علمه بكل شيء في السموات والأرض بعد ذلك فقال :

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

فاستوفى علمه كل شيء .

٣ - قال في خواتيم سورة المنافقون :

﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال في أوائل التغابن :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فللكافرين الذلة ، وللمؤمنين العزة ، وقد أتاهاهم نبأ الذين كفروا من قبل ممن ذاقوا وبال أمرهم^(١) .

جاء في (البحر المحيط) : « مناسبة هذه السورة لما قبلها أن ما قبلها يشتمل على حال المنافقين ، وفي آخرها خطاب المؤمنين ، فأتبعه بما يناسب من قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ هذا تقسيم في الإيمان والكفر^(٢) .

وجاء في (روح المعاني) : « مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه ذكر هناك حال المنافقين ، وخاطب بعد المؤمنين .

وذكر جل وعلا هنا تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر .

وأيضاً في آخر تلك : ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ﴾ [الآية : ٩] .

وقال في هذه : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الآية : ١٥] .

(١) التناصب بين السور في المفتاح والخواتيم ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) البحر المحيط ٢٧٦/٨ .

وهذه الجملة على ما قيل كالتعليل لتلك»^(١).

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

* * *

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ذكر في هذه الآية :

أنه يسبح لله ما في السموات وما في الأرض ، أي : ينزهونه عن كل نقص .

وأنه له الملك .

وله الحمد .

وهو على كل شيء قدير .

(١) روح المعاني ٢٨ / ١١٩ .

والذي ينزهه إنما هو ذو الملك والقدرة .

فكلما كان الملك ملكه أوسع ، والمقتدر قدرته أعظم ؛ كان التنزيه أدل على مدحه ، أما إذا لم يكن مالكا لشيء ، وليس ملكاً على شيء ، ولا قادراً على شيء ؛ فلا معنى لتنزيهه .

وكذلك بالنسبة إلى الحمد ؛ فإنه إذا كان الملك الأوحد والقدير الأعظم محموداً في ملكه وقدرته ، وفي عموم ما يحمد عليه ؛ دل ذلك على كماله في صفاته ؛ إذ قلما يسلم ملك من ملوك الأرض والقدير من أهل الأرض من مأخذ فلا يحمد من كل وجه ، ولا ينزهه من كل وجه ، ولا ينزهه عموم رعيته ، بل هناك من له مأخذ عليه .

أما الله سبحانه فإنه ينزهه أهل السموات والأرض ، وهو المحمود على كل حال .

إن هذه الآية تناسب قوله في خواتيم السورة التي قبلها : ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلَهِكُمُ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [المنافقون : ٩] .

فإنه طلب من الذين آمنوا ألا يلهيهم المال والولد عن ذكر الله ، وذلك يناسب تسبيح ما في السموات والأرض ، وكأن قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تعليل لطلب الذكر من المؤمنين ، وألا تلهيهم الأموال والأولاد عن ذكر الله ، فإن ما في السموات والأرض يسبحون الله ويذكرونه ، فاذكروه أنتم أيها المؤمنون .

فيتوافق جميع ما في الكون في تسبيح الله سبحانه وذكره .

وقد ذكرنا في أكثر من مناسبة أن تكرار (ما) في آيات التسبيح يدل

على أنه يعقب الآية بذكر أهل الأرض ، وأنه إذا لم يكرر (ما) فإنه لا يذكر شيئاً يتعلق بأهل الأرض^(١) .

وقد كرر (ما) في هذه الآية فأعقبها بالكلام على أهل الأرض فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ .

ثم إن السورة ابتدأت بالفعل المضارع ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ ، وقد ذكرنا أيضاً في أكثر من مناسبة أن كل سورة تبدأ التسبيح بالفعل الماضي ، أي : (سبح لله) يجري فيها ذكر للقتال بخلاف ما يبدأ بالفعل المضارع ، أي : (يسبح لله)^(٢) .

وهذه السورة بدأت بالفعل المضارع ، فلم يجر فيها ذكر للقتال ، وهو السمت العام في هذه السور .

وقدم الجار والمجرور في قوله : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ للدلالة على الاختصاص والقصر ، فإنه له الملك حصراً على الحقيقة ، أما غيره فملكهم من تمليكه سبحانه لهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

وكذلك قوله : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ فإنه له الحمد حصراً ، فهو مولى النعم كلها ، وكل من عداه مفتقر إليه وإلى نعمه ، فله الحمد حصراً لا لغيره على الحقيقة ، أما حمد غيره فلا أنه سبحانه أجرى النعمة على يده ،

(١) على طريق التفسير البياني ٢٠٢/١ .

(٢) انظر : (على طريق التفسير البياني) ٢٠٢/١ .

فكل حمد لغيره إنما هو بسبب نعمته سبحانه .

جاء في (روح المعاني): ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ لا لغيره تعالى ؛ إذ هو جل شأنه المبدئ لكل شيء ، وهو القائم به والمهيمن عليه ، وهو عز وجل المولي لأصول النعم وفروعها ، وأما ملك غيره سبحانه فاسترعاء منه وتسليط .

وأما حمد غيره تبارك وتعالى فلجريان إنعامه تعالى على يده ، فكل الأمرين له تعالى في الحقيقة ، ولغيره بحسب الصورة .
وتقديم ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ لأنه كالدليل لما بعده^(١) .

وجاء في (الكشاف): «قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل ؛ لأن الملك على الحقيقة له ؛ لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه ، وكذلك الحمد ؛ لأن أصول النعم وفروعها منه وأما ملك غيره فتسليط منه ، واسترعاء ، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده»^(٢) .

وجاء في (التفسير الكبير) للفخر الرازي : «وقوله تعالى : ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ معناه : إذا سبح لله ما في السموات وما في الأرض فله الملك وله الحمد .

ولما كان له الملك فهو متصرف في ملكه ، والتصرف مفتقر إلى

(١) روح المعاني ١١٩/٢٨ .

(٢) الكشاف ٢٣٦/٣ .

القدرة فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(١).

ومن لطيف التناسب في هذا المفتاح وما بعده من الآيات:

١ - أنه قال بعدها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

والذي يفعل هذا إنما هو على كل شيء قدير ، وهو الذي ذكره في الآية الأولى.

٢ - ثم قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

فقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يناسب قوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يناسب قوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ فالذي يفعل ذلك بالحق إنما له الحمد.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يناسب قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ويناسب قوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾.

ويناسب ما ذكره بعد ذلك من مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ...﴾ [الآيتان: ٩ - ١٠].

وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يناسب قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ فإن ذلك يفيد تنزيهه عن الباطل.

(١) التفسير الكبير - المجلد العاشر ٥٥١.

٣ - وقال بعد ذلك : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

فالذي له الملك ينبغي أن يعلم ما في ملكه .

وتمام العلم أن يعلم ما أسر عباده وما يعلنون ، ويعلم ما في الصدور ، والذي يعلم ذلك له الحمد وهو على كل شيء قدير .

وينبغي أن يسبحه ما في السموات وما في الأرض .

كما ناسب مفتح السورة خاتمتها « فقد قال في أول السورة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وقال في آخرها :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

فكلتا الآيتين في الله وصفاته .

فقوله في الآية الأولى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يناسب قوله في آخر السورة : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

فالذي له الملك هو العزيز ، وهو الحكيم من الحكم .

والذي له الحمد هو الحكيم من الحكمة ، وهو الذي ينزهه أهل السموات والأرض ويسبحونه .

والذي له الملك وله الحمد ينبغي أن يكون عالماً بما في ملكه لا يند عنه شيء ، فقال سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ .

وقال في أوائل السورة: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٤﴾ .

والذي يعلم ذلك هو عالم الغيب والشهادة المذكور في آخر آية من السورة .

ثم ذكر الذين كفروا بعد ذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٥﴾ وما بعدها .

وذكر بعدها الذين آمنوا إلى خواتيمها فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٢﴾ .

وذلك إلى نهاية السورة»^(١) .

* * *

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢﴾ .

* * *

«بدأ بالكفار لأنهم أكثر ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] .

وقد يكون مع ذلك إشارة إلى أنه سيبدأ بذكر الكافرين ثم يذكر

(١) انظر: (التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم) - سورة التغابن .

المؤمنين بعدهم ، فقد قال بعد هذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وقال : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

فقدم الكلام على الكافرين ، ثم ذكر المؤمنين بعدهم كما فعل في الآية التي ذكرناها أولاً . . . فقد تعاضد على ذلك أمران كلاهما يقتضي التقديم^(١) .

جاء في (الكشاف) : «تقديم الكفر ؛ لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم»^(٢) .

﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ .

أي : فمنكم مَنْ اختار الكفر فصار كافراً ، ومنكم مَنْ اختار الإيمان فصار مؤمناً . جاء في (الكشاف) : «يعني : فمنكم آتٍ بالكفر وفاعل له ، ومنكم آتٍ بالإيمان وفاعل له ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٦] .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : عالم

(١) التعبير القرآني ٥٨ ، وانظر : الحاشية ٥٨ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ ، وانظر : روح المعاني ٢٨/ ١١٩ .

بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم»^(١).

وذهب بعضهم إلى أن الكفر والإيمان في ضمن الخلق^(٢).

والذي يترجح عندي معنى الاختيار، كما في قوله تعالى:
﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلُ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾
وقوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] والله أعلم.

جاء في (فتح القدير): «قال الزجاج: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر، وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان، والكافر يكفر، ويختار الكفر بعد خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه»^(٣).

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ أي: هو لا غيره، فكان الواجب أن يوحده ويعبدوه.

* * *

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الْصُّدُورِ ﴿١﴾.

* * *

قدم خلق السموات والأرض على علمه بما فيهما؛ لأن خلقه لهما

(١) الكشاف ٢٣٦/٣ - ٢٣٧.

(٢) روح المعاني ٢٨/١١٩ - ١٢٠.

(٣) فتح القدير ٥/٢٢٩.

أسبق ، فذكر أنه يعلم ما فيهما ، أي : بعد إيجادهما .

ونحوه : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴾ فإنه ذكر ذلك بعدما ذكر أنه صورهم ، فإنه يعلم ما يسرون وما يعلنون بعد إيجادهم ، وإن كان علمه العام هو السابق لكل شيء . وقد سطر سبحانه علمه بما كان وما سيكون قبل خلق الكائنات .

وظاهر أن قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ يناسب قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ ﴾ .

﴿ بِالْحَقِّ ﴾ .

بالغرض الصحيح والحكمة البالغة^(١) .

و(ذات الصدور) الأسرار المستكنة في صدور الناس ، أو القلوب التي في الصدور^(٢) .

لقد قدم خلق السموات والأرض على تصوير الإنسان لأن خلقه لهما أسبق .

وأخر ذكر علمه بما في السموات والأرض بعد خلق الإنسان ليشمل علمه الإنسان أيضاً ؛ لأنه مما في الأرض . ولو قدم ذكر علم ما في السموات والأرض على خلق الإنسان لربما ظن ظان أن ذلك لا يشمل العلم بالإنسان .

(١) الكشف ٢٣٧/٣ .

(٢) روح المعاني ٢١١/١١ .

وناسب التقديم والتأخير السياق من جهة أخرى ، فإنه قدم ذكر علمه بما في السموات والأرض لما قدم خلق السموات والأرض . ولما أخر ذكر الإنسان أخر ذكر علمه بما يسرون وما يعلنون .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

لم يكرر (ما) فلم يقل (وما في الأرض) ، وقد يكررها في مواطن ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٩] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٧] .

وقوله : ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُوْنَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٦] .

وفي مواطن أخرى لا يكرر (ما) وذلك كآية التغابن هذه ، وكقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

وال تكرار قد يفيد التوكيد ، وقد يفيد التفصيل . فالتكرار من أساليب التوكيد اللفظي . وقد يفيد التفصيل بخلاف الإيجاز ، وقد يكون لأغراض أخرى .

ومن الملاحظ في القرآن الكريم أنه إذا ختم الآية بالعلم المطلق وإحاطته بكل شيء ، أي : بنحو قوله : ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كرر (ما) فقال : ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وذلك نحو ما جاء في آية المائدة

٩٧ ، وآية الحجرات ١٦ ، وآية المجادلة ٧ .

قد تقول: ولكنه قد ذكر سعة علمه في التغابن فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

فذكر العلم بما يسرون وما يعلنون وأنه عليم بذات الصدور ومع ذلك لم يكرر (ما) فلم يقل: (وما في الأرض) مع دلالة على سعة علمه ، فلم ذاك؟

فنقول: إن قوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أشمل في الدلالة على العلم من قوله: ﴿مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ و﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فإنه خصص العلم بما يسرون وما يعلنون وبما في الصدور . ولا شك أن العلم بكل شيء أوسع بكثير من هذا ، فإن هذا جزء يسير من علمه سبحانه ، فكرر (ما) في موضع الإحاطة التامة .

قد تقول: ولكنه قال في آل عمران: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩] .

فكرر (ما) مع أنها شبيهة بآية التغابن ، فقد ذكر إخفاء ما في الصدور أو إبداءه ، وهو شبيه بالإسرار والإعلان ، فما الفرق؟

والجواب أن السياقين مختلفان من أكثر من وجه:

١ - منها أنه فصل في سياق آل عمران في شؤون أهل الأرض ما لم يفصله في التغابن ، فقد ذكر قبل الآية ما يتعلق بأهل الأرض وأحوالهم وتصريف الله لهم ولما في الأرض ما لم يذكر في التغابن ، فقد قال:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

في حين لم يقل قبل آية التغابن في أهل الأرض إلا قوله: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ .

فناسب هذا التفصيل التفصيل بذكر (ما) في آية آل عمران ، وقد ذكرنا أن التكرار قد يكون للتفصيل .

٢ - لقد ختم آية آل عمران بالقدرة الشاملة فقال: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ومن مقتضيات القدرة الشاملة العلم الشامل ، فالقادر على كل شيء ينبغي أن يكون عالماً بكل شيء ، وإلا فكيف يكون قادراً على شيء وهو ليس عالماً به؟! .

وما أجل التناسب بين القدرة الشاملة والعلم الشامل! .

٣ - لقد قال في آية التغابن: ﴿ وَبَعَلُّمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ فذكر الإسرار والإعلان .

وقال في آل عمران: ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ .

فذكر الإخفاء والإبداء والإخفاء كأنه «أخفى من السر قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧] .

وقد يكون في الأشياء التي تسترها عن الناظر من الحاجات

والبضائع ، تقول : (أخفيت البضاعة تحت الأرض أو في صندوق) أي : سترتها .

جاء في (المفردات في غريب القرآن) : «خفي الشيء خفية ؛ إذا استتر. وأخفيته : أوليته خفاء ، وذلك إذا سترته ، ويقابل به الإبداء والإعلان»^(١) .

وقال تعالى : ﴿ تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ [المتحة : ١] .

فقال : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ بعد قوله ﴿ تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ ﴾ ولم يقل : (وأنا أعلم بما أسررتم وما أعلنتم) ذلك لأنه أفاد أنه يعلم الدافع الذي أخفوه في أنفسهم من هذا الإسرار ، فإنك قد تسر شيئاً لشخص وأنت تبتغي غرضاً من ذلك تخفيه في نفسك ، فربنا يعلم ذلك الأمر وماذا أخفيت»^(٢) .

والإبداء أعم من الإعلان ، فقد يكون الإبداء من غير إعلان وقد يكون بإعلان. فالإبداء هو الإظهار ، و(بدا) ظهر ، قال تعالى : ﴿ فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْءَئُهُمَا ﴾ [طه : ١٢١] وتقول : (بدالي الأمر) أي : ظهر .

فذكر في آل عمران ما هو أعم ، فناسب ذكر العموم التفصيل في قوله : ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

ومن طريف التناسب في العموم والخصوص في هاتين السورتين أنه

(١) المفردات في غريب القرآن (خفي).

(٢) على طريق التفسير البياني ج ٣ في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

قال في آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وقال في التغابن: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢) .

فذكر من السعة في المشيئة في آل عمران ما لم يذكره في التغابن ،
فقوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أوسع مما ذكر في قوله:
﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فهذا جزء من مشيئته ، ولو شاء غير ذلك لفعل .

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أوسع من قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ،
فقوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ بعض صفات الألوهية .

فما في آل عمران من العموم والشمول في هذه الآية مناسب لقوله:
﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُتُّوهُ﴾ .

والخصوص في آية التغابن يناسب الخصوص في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا
تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ﴾ .

ومن الملاحظ في آتي آل عمران والتغابن من جهة أخرى أنه قدم في
آية آل عمران علمه بإخفاء ما في الصدور أو إبدائه على علم ما في
السموات وما في الأرض فقال: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُتُّوهُ يَعْلَمُهُ
اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

وقدم في التغابن علمه بما في السموات والأرض على علمه بما
يسرون وما يعلنون ، ذلك أنه في آية التغابن قدم - كما ذكرنا - خلق
السموات والأرض على خلق الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿ [التغابن: ٣] فناسب تقديم علمه
بما في السموات والأرض .

وأما في آية آل عمران فالسياق في ذكر أهل الأرض وما في الأرض ،
فقد قال قبل الآية : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ
مِمَّنْ تَشَاءُ... ﴾ .

وقبلها : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ... ﴾ .

وبعدها إنما هو في الكلام على أهل الأرض ، فناسب تقديم ما يتعلق
بهم .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴾ .

يقدم ربنا سبحانه السر على العلن في الغالب ، غير أنه قد يقدم
الإعلان على الإسرار إذا كان السياق يقتضي ذلك ، فقد قال في سورة
نوح مثلاً : ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [الأنبياء: ٩] ذلك لأنه في مقام
الدعوة والتبليغ ، والأصل في التبليغ الإعلان ؛ ولذا قال قبل الآية :
﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ [الأنبياء: ٨] .

ثم إنما أرسل هو لينذر قومه ، وإنذار القوم إنما يكون بالإعلان ،
ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ [الأعلى: ٧] فقد قدم الجهر
على الإخفاء ، والمقام يقتضي ذلك ، فإن المقام في الإقراء ، قال
تعالى : ﴿ سَتَقَرُّنَاكَ فَلَا تَنْفَى ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّمَا يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ .

والإقراء إنما يكون جهراً لا إسراراً ، فقدم ما هو أنسب ، ونحوه قوله

تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤].

فقدم الإبداء على الإخفاء ، ذلك أنه السياق في الإبداء ، فقد قال قبلها: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الآية: ٥٣].

والسؤال إنما يكون بالإبداء .

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا﴾ [الآية: ٥٣] والنكاح إنما يكون بالإعلان والإظهار ، وبعدها قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الآية: ٥٨].

وذلك إنما يكون بالجهر من القول ، فناسب تقديم الجهر .

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فقدم الإبداء على الإخفاء ؛ لأنه قال: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ والحساب إنما يكون على الإبداء لا على الإخفاء بخلاف قوله: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩].

فقدم الإخفاء على الإبداء ؛ لأنه قال: ﴿يُعَلِّمُهُ اللَّهُ﴾ والإخفاء أدل على العلم .

فناسب كل تعبير موضعه .

وكل ما قدم في ذلك أو أخر إنما هو لمطابقة مقتضى الحال .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

قد تقول: لقد قال في سورة هود: ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فأكد علمه بـ (إن).

وقال هاهنا: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ من غير تأكيد.

وذلك أنه ذكر في سياق آية هود ما يتعلق بعلمه فيما يفعله المذكورون ، فقد قال: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

ولم يذكر في آية التغابن نحو هذا ، وإنما قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

فلما ذكر في آية هود فعلهم وعلمه به أكد علم ماتخفيه صدورهم ، ولما لم يذكر مثل ذلك في التغابن لم يؤكد.

فقد قال في هود:

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ وهذا يتعلق بأفعالهم .

وقال: ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ وهذا يتعلق بأفعالهم أيضاً .

وقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وذكر نحو هذا في التغابن ، غير

أنه لم يذكر أمراً آخر يتعلق بهم .

فلما زاد ما ذكر في هود فيما يتعلق بهم عما ذكره في التغابن أكد ذلك بـ (إن) .

فناسب كل تعبير موضعه .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

* * *

قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ولم يقل (من قبلكم) في حين قال نحو ذلك ، أعني بالإضافة ، في أكثر من موضع ، فقد قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ في قوله نوح وعاد وثمود [التوبة: ٧٠] .

وقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ في قوله نوح وعاد وثمود [إبراهيم: ٩] .

بذكر المضاف إليه .

ولعل من أسباب عدم ذكر المضاف إليه في آية التغابن أنه عمم ، فلم يذكر أقواماً بأعيانهم ، وإنما قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فلم يذكر قوماً . في حين لما ذكر المضاف إليه ذكر الأقوام فقال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ﴾ .

فناسب الذكر الذكر ، وناسب عدم ذكر المضاف إليه عدم ذكر الأقوام .

﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ .

الوبال: الثقل والشدة والسوء .

ومعنى ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ «أي: وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم ، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي»^(١).

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: في الآخرة.

فذكر ما لاقوه في الدنيا وما سيلاقونه في الآخرة وهو العذاب الأليم.

* * *

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

* * *

أي: إن ما ذاقوه من العذاب وما سيلاقونه في الآخرة إنما هو بسبب كفرهم وتوليهم.

والهاء في (أنه) ضمير الشأن^(٢)، وذلك لتعظيم هذا الأمر الذي أفضى بهم إلى ذلك.

وقال: ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ ولم يقل (بأنهم) لأنه أراد تعظيم هذا الأمر على العموم ، سواء كان منهم أم من غيرهم ، ولو قال (بأنهم) لربما أفهم أن ذلك خاص بهم ، ولو كان من غيرهم لكان الأمر ليس بهذه الوخامة ، أو لكان له شأن آخر.

قد تقول: ولكنه قال في موضع آخر: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ

(١) ابن كثير ٣٧٤/٤ ، فتح القدير ٢٢٩/٥ .

(٢) انظر: الكشف ٢٣٧/٣ ، البحر المحيط ٢٧٧/٨ .

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿[غافر: ١٢٢] .
فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكْفَرُوا﴾ ولم يقل (بأنه)
كما قال في آية التغابن ، فما الفرق؟

فنقول: إن السياقين مختلفان. وقد ذكرنا أن الضمير في (أنه) ضمير
الشان ، وهو يفيد تعظيم هذا الأمر على العموم .
وأما قوله (أنهم) فإن الأمر خاص بهم ، فإن الإسناد إليهم ، وكل
مناسب لسياقه الذي ورد فيه من أكثر من جهة .

١ - فقد قال قبل آية غافر: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ
قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١] .

فقال: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بالإضافة إلى ضميرهم .
وقال في آية التغابن: ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فحذف المضاف
إليه ، والإضافة تفيد التبيين والتخصيص .

فلما أضاف إلى ضميرهم في غافر فقال: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال:
(بأنهم) بذكر ضميرهم .

ولما لم يذكر المضاف إليه في التغابن قال: (أنه) بضمير الشان ، فلم
يذكر ضميرهم .

٢ - ذكرنا أن ضمير الشان إنما هو لتعظيم الأمر .

وما ذكره في التغابن أشد وأعظم .

فقد قال في التغابن: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ

يَهْدُونَنَا فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٢﴾ .

وقال في غافر: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢٢] .

فذكر في التغابن من صفات الكفر ما هو أشد فقال:

١- ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ وهو إنكار للرسل على العموم .

٢- ﴿ فَكْفَرُوا ﴾ .

٣- ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ .

وقال في غافر:

﴿ فَكْفَرُوا ﴾ .

فذكر شيئاً واحداً مما ذكره في التغابن ، فزاد في التغابن التولي وإنكار صفة الرسالة للبشرية .

فكان هذا أعظم وأشد ، فجاء بالضمير الذي يدل على عظم هذا الشأن .

وهذا من الوضوح بمكان .

﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ .

قال: ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ليدل على استمرار المجيء بالبينات فقوله ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ ﴾ يفيد الاستمرار ، ولو قال: (أتتهم) لدل على مجيء البينات ، ولم يدل على الاستمرار تصريحاً .

﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ .

وذلك إنكار أن يكون الرسل بشراً مثلهم ، وهذا شأن كثير من المنكرين على مدار التاريخ ، فقد ذكر ذلك قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، فقد كانوا يقولون لرسولهم : ﴿ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠] .

وكذلك قال كفار قريش : ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٣] .

وقال الله لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] .
﴿ فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ .

أي : كفروا بالرسول ، وبما جاؤوا به وأعرضوا عنهم ونكلوا عن العمل^(١) ، مع تنابع البينات واستمرارها .

والتولي في الأصل ترك المكان والانصراف عنه ، قال تعالى في قصة موسى بعد ما سقى للمرأتين : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ [القصص: ٢٤] أي : انصرف إلى الظل .

وقال عن يعقوب عليه السلام : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤] .

وقال عن قسم من الصحابة الفقراء : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢] أي : انصرفوا عنه .

والتولي قد يكون بالإعراض الذي ليس من الكفر ، وقد يكون التولي

(١) فتح القدير ٢٢٩/٥ ، ابن كثير ٣٧٤/٤ .

كفراً وهو الإعراض عن الرسول والرسالة .

فلقد قال عن جماعة من الصحابة انهزموا يوم أحد^(١) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

وقد يكون كفراً ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ [الغاشية : ٢٣] .

وقال : ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ [التغابن : ٦] .

وقال : ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

وقال : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] .

وقال : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وقال : ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٤٣] .

لقد قدم الكفر على التولي في آية التغابن هذه فقال : ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ .

وقدم التولي على الكفر في موضع آخر فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ [الغاشية : ٢٣] .

والواو لا تفيد الترتيب ، وإنما هي لمطلق الجمع ، وإن التقديم

(١) انظر : فتح القدير ١/٣٥٨ .

والناخير بحسب السياق كما ذكرنا في أكثر من موضع .
 فالسياق في التغابن إنما هو في ذكر الكافرين فقال : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التغابن : ٥] .

وقال : ﴿وَزَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن : ٧] .
 وقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [التغابن : ١٠] .

فناسب تقديم الكفر .

وأما في الغاشية فالسياق مناسب لتقديم التولي ، فقد قال :
 ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿ .
 وهؤلاء تولوا عن التذكير وانصرفوا عنه وأعرضوا .

وكثيراً ما يكون الإعراض والتولي إعراضاً وتولياً عن التذكير .
 قال تعالى : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

وقال : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل : ٨٢] .
 وقال : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة : ٩٢] .
 وقال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف : ٥٧] .
 وقال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة : ٢٢] .
 فذكرُ التولي مناسب للتذكير والتبليغ .
 فلما قال سبحانه : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ناسب تقديم التولي .

فناسب كل تعبير موضعه .

ومن لطيف المناسبات ما قاله سبحانه في آخر الغاشية : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ذلك أنه لما قال : ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكُفِّرَ ﴾ والتولي هو الانصراف ، والمنصرف لابد أن يؤوب إلى مكانه ، قال : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي : إن هذا المتولي المنصرف عن التذكير إلينا إياه ، أي : سيؤوب إلينا وليس إلى جهة أخرى .

﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

أي : لم يلتفت إليهم واطرحهم « حيث أهلكهم وقطع دابرهم »^(١) ، من استغنى عن الشيء فلم يلتفت إليه .

﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن العالمين وعن إيمانهم وطاعتهم^(٢) .

﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي : محمود على جهة الثبوت والدوام .

وقد تكلمنا في هذين الوصفين في أكثر من موضع ، من ذلك ما ذكرناه في تفسير سورة لقمان في قوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

ولئلا يظن أن الاستغناء إنما حصل بعد هلاكهم قال : ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي : إن الله غني حميد على جهة الدوام قبل ذلك وبعده .

قد تقول : لقد قال ههنا : ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ من دون توكيد .

وقال في سورة الممتحنة : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ بالتوكيد

(١) روح المعاني ١٢٢/٢٨ .

(٢) روح المعاني ١٢٢/٢٨ .

ب (إن) وذكر ضمير الفصل ، وتعريف الغني الحميد ، مع أن السياق في التولي في الموضعين ، فقد قال في آية التغابن : ﴿ فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

وقال في آية الممتحنة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

فنقول: ليس الأمر على ما ظننت ، وإنما السياق مختلف في
الموضعين .

فقد قال في الممتحنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾
وَالْيَوْمَ الْآخِرُ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١﴾ والخطاب للمؤمنين ،
والسياق في أمر آخر غير ما في التغابن ، فإن هذه الآية والتي قبلها في
سياق آخر.

فإن أول سورة الممتحنة هو قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ...﴾ .

وسبب النزول إنما هو في أحد الصحابة ، وهو حاطب بن أبي بلتعة ، أرسل كتاباً إلى أناس من المشركين في مكة يخبرهم بتوجه الرسول إليهم لفتح مكة ؛ لتكون له عندهم يد ، يدفع بها عن أهله وماله ^(١) .

فَنَزَلَتْ آيَاتُ تَبَيِّنَ مَوْقِفَ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْهُمْ ،
وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ أُسْوَةٌ فِيهِمْ ، لَا أَنْ يَتَّخِذُوا عِنْدَهُمْ يَدًا
وَيُوَادُّوهُمْ لِيَرْجُوا نَفْعَهُمْ فَقَالَ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ
مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣٤٥/٤ وما بعدها ، فتح القدير ٢٠٥/٥ - ٢٠٦.

الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴿ [الآية : ٤] .

وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

فينبغي أن تبرؤوا منهم لا أن توادوهم ، وأن ترجوا الله واليوم الآخر لا أن ترجوهم ، فإن الله هو الغني ، وليس هؤلاء ، بل إن الله هو الغني الحميد ، وليس ثمة غني غيره ، وهو المحمود على الدوام ، فارجوا الله واليوم الآخر لما تريدون ، ولا ترجوا أولئك ؛ فإنه ليس عندهم ما ترجونه .

فقال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ بالتعريف والقصر والتوكيد وحذر من يتولى أنه لا ينال شيئاً ولا يبلغ مراداً .

وليس في سياق التغابن شيء من ذلك ، فلم يؤكد ولم يقصر .
فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُبْعَثَ قُلٌ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّهُ لَنَتُبْنُوهُ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

* * *

الزعم قيل أكثر ما يكون فيما يشك ولا يتحقق ، وقيل : أكثر ما يستعمل فيما كان باطلاً أو فيه ارتياب ، وقد يطلق على الظن والكذب ،

وأكثر ما يستعمل للدعاء الباطل^(١) .

ولم يرد في القرآن إلا في الذم .

فقد ادعى الذين كفروا أن لن يبعثوا ، فأمر الله سبحانه رسوله أن يقسم على أن البعث سيكون ، وسيحاسبون على أعمالهم .

ونفوا البعث بـ (لن) المؤكدة لنفي المستقبل .

وكان الجواب بالقسم وتوكيد الفعل الدال على الاستقبال ، وقال : إن ذلك يسير على الله .

وقدم الجار والمجرور (على الله) للحصر ، أي : إن ذلك على الله وحده يسير ، وليس يسيراً على غيره .

* * *

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

* * *

دعاهم إلى الإيمان بالله ورسوله وما أنزل إليه ؛ لينجوا من عذاب الله في الدنيا والآخرة .

فقد ذكر نبأ الذين كفروا من قبلهم ، وأنهم ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا ، وأن لهم عذاباً أليماً في الآخرة .

وذكر ما زعمه الذين كفروا من عدم إيمانهم بالبعث وما سيجره عليهم عدم الإيمان ، فدعاهم إلى الإيمان ؛ لينجوا من عذاب الله ويفوزوا .

(١) انظر : المصباح المنير (زعم) ، لسان العرب (زعم) ، روح المعاني ٢٨ / ١٢٢ .

وذكر الإيمان بالله والرسول وما أنزل إليه وسماه نوراً فقال:
﴿وَالنُّورِ الَّذِي أُنْزِلَ﴾ فذكر النور مناسبة لما مر قبلها وهو قوله:
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا﴾ .

والنور إنما هو للهداية ، فهو مناسب لقوله : ﴿أَبَشِّرْ يَهُودُنَا﴾ .
ومناسب لقوله : ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لأن الأمور تتضح
وتبين بالنور ، والبيّنات إنما هي نور .

وهو مناسب لقوله بعدها : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ .

والنور إنما هو للهداية ، والإيمان نور ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
يُخْرِجُهُمُ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وقال : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكِمُوا فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] .

فذكر أن الذين كفروا في الظلمات .

جاء في (تفسير الرازي) في قوله : ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أُنْزِلَ﴾ «وهو
القرآن ، فإنه يهتدى به في الشبهات كما يهتدى بالنور في الظلمات»^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : «﴿وَالنُّورِ الَّذِي أُنْزِلَ﴾ وهو القرآن ، فإنه
بإعجازه مبين لغيره ، كما أن النور كذلك ، والالتفات إلى نون العظمة
لإبراز العناية بأمر الإنزال ، وفي ذلك من تعظيم شأن القرآن ما فيه»^(٢) .

(١) تفسير الرازي ١٠/٥٥٤ .

(٢) روح المعاني ٢٨/١٢٣ .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

الخبير : هو العالم ببواطن الأمور .

وناسب هذا ما جاء في الآية التي قبلها : ﴿ ثُمَّ لَنْبُؤَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فكان معنى هذه الآية تنمة لمعنى الآية التي قبلها ، وكأنهما متتاليتان . فلو قيل : (ثم لنبؤن بما عملتم والله بما تعملون خبير) لكان في غاية الحسن والمناسبة .

وقد بنى الفعل في الآية السابقة للمجهول فقال : ﴿ لَنْبُؤَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ وقد بين في هذه الآية من الذي ينبئ ويعلم ببواطن الأمور ، وقدم ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ على ﴿ خَبِيرٌ ﴾ لأن السياق في العمل ؛ فقد قال في أوائل السورة : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، وقال فيما بعد : ﴿ ثُمَّ لَنْبُؤَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ ، وقال بعدها : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ فناسب تقديم العمل .

وقد ذكرنا في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) أنه «إذا كان السياق في عمل الإنسان قدم عمله فيقول : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

وإذا كان السياق في غير العمل ، أو كان في الأمور القلبية ، أو كان الكلام على الله ؛ قدم صفته فيقول : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾^(١) .

وقد ضربنا لذلك أمثلة فلا نعيد القول فيه .

وقال هاهنا : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فذكر الخبرة .

وقال في آية سابقة : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فذكر البصر .

(١) من أسرار البيان القرآني ١٣٣ - ١٣٤ .

ولعل من أسباب ذلك أنه في الآية السابقة ذكر الخلق فقال:
﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ وذلك مما يبصر فقال:
﴿ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وقال بعدها: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ وكل ذلك مما يبصر ، فناسب ذكر البصير .

وأما الآية التي ذكرت فيها الخبرة فهي في الإيمان ، قال تعالى:
﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالنُّورِ الَّذِي أُنْزِلَ ﴾ ، والإيمان أمر قلبي ، فناسب ذكر
الخبرة ، وهي العلم ببواطن الأمور .

وأضاف الرسول إلى ضميره سبحانه تعظيماً له .

* * *

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ
عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التغابن: ٩] .

* * *

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ ظرف ﴿ لَتَنْبُؤَنَّ ﴾ أي : لتنبؤن يوم يجمعكم ، ويجوز
أن يكون منصوباً بإضمار (اذكر) مقدراً ، وقيل غير ذلك^(١) .

و(يوم الجمع) هو يوم القيامة ، سمي بذلك ؛ لأنه يجمع فيه الأولون

(١) انظر: روح المعاني ٢٨/١٢٣ .

والآخرون. وقيل: جمع أهل السموات وأهل الأرض^(١).

جاء في (تفسير ابن كثير) في قوله «يوم الجمع»: «وهو يوم القيامة سمي بذلك؛ لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾^(٢).

وقال: ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾: واللام للتعليل، أي: لأجل ذلك اليوم للدلالة على عظمة ذلك اليوم، ولم يقل (فيه) فإنه لابد لكل جمع من يوم يجمع فيه ذلك الجمع، وإنما قال ﴿لِيَوْمٍ﴾ ليدل على أن الجمع لأجل ذلك اليوم.

وقد ذهب بعضهم إلى أن اللام بمعنى (في)^(٣).

ولا أراه سديداً، فإنه لم يأت بـ (في) في القرآن في نحو هذا التعبير، وإنما يأتي باللام، أو قد يأتي بـ (إلى) للدلالة على انتهاء الغاية، أي: يستمر جمعهم إلى ذلك اليوم.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥].

وقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩].

(١) انظر: الكشف ٢٣٨/٣، البحر المحيط ٢٧٨/٨، تفسير الرازي ٥٥٤/١٠.

(٢) ابن كثير ٣٧٥/٤.

(٣) انظر: روح المعاني ١٢٣/٢٨.

وقال: ﴿ ذَلِكْ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣]
للدلالة على عظم ذلك اليوم.

وقد حذرنا ربنا من ذلك اليوم وأمرنا بخشيته، قال تعالى:
﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ [لقمان: ٢٣].

وقال: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٢٧].

وقال: ﴿ يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧].

وقال: ﴿ فَكَيْفَ تَنْقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

وعدها أيضاً بـ(إلى). قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾
[الجاثية: ٢٦].

وقال: ﴿ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء: ٨٧].

وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾
[الواقعة: ٥٠].

للدلالة على الانتهاء.

﴿ ذَلِكْ يَوْمُ النَّعَابِ ﴾ .

الغبن بخس الحق وفوت الحظ والنقص في الثمن وغيره.

والمراد بيوم التغابن اليوم الذي يغبن فيه أهل الجنة أهل النار، فيغبن
فيه أهل النار بخسران أنفسهم وأهليهم.

وقيل : «سئل بعضهم عن يوم التغابن فقال : تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا»^(١).

وقيل : هو «يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار .

وقيل : هو «يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ، وبالعكس»^(٢).

وقيل : التغابن «هو فوت الحظ ، والمراد بالمغبون : من غبن في أهله ومنازله في الجنة ، فيظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان»^(٣).

وفي (فتح القدير) : «يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضاً ، فيغبن أهل الحق أهل الباطل ، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر ، وأهل الطاعة أهل المعصية . . . فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة»^(٤).

فهو يوم التغابن العام ، يغبن فيه أهل الكفر والضلال ، ويغبن فيه أهل الحق ؛ لأنهم تركوا ما لو فعلوه لنالوا ما لم ينالوه من الدرجات العلى ، فالكل مغبون على حسب عمله .

فهو يوم التغابن .

ومن لطيف التناسب في ذكر التغابن أنه ذكر بعده أصحاب الجنة

(١) المفردات في غريب القرآن (غبن).

(٢) روح المعاني ٢٨/١٢٣ ، وانظر : الكشاف ٣/٢٣٨ ، البحر المحيط ٨/٢٧٨ .

(٣) روح المعاني ٢٨/١٢٤ .

(٤) فتح القدير ٥/٢٣٠ .

وأصحاب النار ، فأحدهما غابن والآخر مغبون ، فأصحاب النار مغبونون ، عافانا الله من ذلك .

* * *

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التغابن : ٩] .

* * *

قال هاهنا : ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ ، وقال في موطن آخر : ﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧١] بذكر ﴿ مِنْ ﴾ التي تفيد التبويض .
وسياق كل من الآيتين يبين سبب ذلك .

فقد قال في آية البقرة : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

فآية التغابن إنما هي في الإيمان بالله والعمل الصالح عامة : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ .

أما آية البقرة فهي في إيتاء الصدقات ، وهي جزء من العمل الصالح ، فما ذكر في آية التغابن أعم وأعلى ، فناسب ذلك تكفير السيئات عامة .
فناسب العموم العموم ، وناسب البعض البعض .

قد تقول : لقد قال في سورة الطلاق : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ ﴿ ١١ ﴾ فزاد في آية التغابن قوله : ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ دون آية الطلاق « ذلك أن آية التغابن

خطاب للكافرين ، وقد دعاهم إلى الإيمان فقال : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ۞ .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۞ ﴾ [الآية : ٩] .

وأما آية الطلاق فهي خطاب للمؤمنين وقد دعاهم إلى التقوى فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ۞ .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴿١١﴾ [الطلاق : ١١] .

فكان ذكر تكفير السيئات مع الكافرين الذين هم في معصية مستديمة ، وسيئاتهم غير منقطعة ؛ أولى من ذكرها مع المؤمنين^(١) .

جاء في (درة التنزيل) : « للسائل أن يسأل عما خصص الآية الأولى بقوله : ﴿ يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۞ ﴾ وإخلاء الآية الثانية منه ؟ .

والجواب أن الأولى جاءت بعد قوله مخبراً عن الكفار فقالوا : ﴿ أَبَشِّرْ يَهُودَ نَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ۞ فهذه سيئات تحتاج إلى تكفير إذا آمن بالله بعدها فقال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ۞ ﴾ في مستقبل عمره يمسح عنه ما سبق من كفره ، ثم يوجب له جنات .

والآية الثانية لم يتقدمها خبر عن كفار بسيئات فيوعدوا بتكفيرها إذا أقلعوا عنها وتابوا منها وعملوا الصالحات مكانها ، وكان مضموناً

(١) التعبير القرآني ١٠٨ .

تکفیر السيئات عند الإيمان وعمل الصالحات ، فلم يحتاج إلى ذكره كما كان الأمر في غيره^(١) .

ومن الملاحظ أنه ختم آية الطلاق بقوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا﴾ وهو مناسب لما ورد في السورة وتكرر فيها من ذكر الإنفاق والرزق.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿٢١٩﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. . .

وقال: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ . . . وَإِنْ كُنْ أُولَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الآية: ٦] .

وقال: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَنهَآ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ .

فناسب ذكر الرزق الحسن في الآية .

❖ ❖ ❖

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿١٥﴾ .

❖ ❖ ❖

ذكر التكذيب بالآيات إضافة إلى الكفر ، وذلك مناسب لما ورد في
السورة ؛ فقد قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُدُونَا
فَكْفُرُوا أَوْتَلُوا ﴾ [الآية : ٦] .

والبینات: إنما هي آیات من آیات الله.

وقال: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [الآية: ٨].

والنور الذي أنزله إنما هو القرآن وما فيه من آيات.

والتكذيب بالآيات يشمل الآيات التي أوتيتها رسل الله من المعجزات وغيرها.

ويشمل آيات الله في كتبه ومنها آيات القرآن الكريم.

فالتكذيب بالآيات يشمل كل أنواع الآيات.

قد تقول: لقد قال في الآية التي قبلها: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ بأسلوب الشرط.

وقال هاهنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بذكر الاسم الموصول ، فما الفرق؟

والذي يبدو أن سبب الاختلاف أنه قال قبل الآية الشرطية:

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾. فطلب منهم الإيمان بالله ورسوله، ثم قال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا...﴾

فهذه عاقبة من يستجيب.

وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾ بالاسم الموصول والفعل الماضي فلأنه تقدم ذكر الكافرين ، وذكر الذين كفروا من الماضين ، وأخبر عنهم بالماضي فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذلك بأنه، كانت تأنيبهم رُسُلهم بالبينت فقالوا أبشرْ يَهُودُنَا فَكَفَرُوا.

وقال: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنِيَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَرَبِّي... ﴾ [الآية: ٧] .

فناسب الإخبار عنهم بالماضي فقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ .

ولم يسبق ذكر للمؤمنين في الماضي ، وإنما طلب الإيمان .

فجاء مع المؤمنين بأداة الشرط الدالة على الاستقبال .

وجاء مع الكافرين بالاسم الموصول والفعل الماضي .

فناسب كل تعبير ما ورد من السياق .

جاء في (تفسير الرازي): «قال تعالى في الإيمان: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ بلفظ المستقبل ، وفي الكفر: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بلفظ الماضي .

فنقول: تقدير الكلام: ومن يؤمن من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ، ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار»^(١) .

والملاحظ أنه لم يأت الخلود مع أصحاب الجنة بلفظ المفرد ، وإنما يؤتى به بلفظ الجمع دائماً ، فلم يقل في أصحاب الجنة (خالداً) وإنما يقول (خالدين) بلفظ الجمع دائماً بخلاف أصحاب النار ، فإنه يؤتى به بلفظ الجمع أو الأفراد بحسب السياق .

فإنه يؤتى مع أصحاب الجنة بلفظ الجمع للاستئناس ، فإن الجمع يفيد الأنس بخلاف الوحدة. وقد ذكرنا نحو ذلك في أكثر من مناسبة .

ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه حيث ذكر أصحاب الجنة أو

أصحاب النار ، أعني ذكر كلمة (أصحاب) مضافة إلى الجنة أو إلى النار ،
لم يذكر الأبد ، وإنما قد يكتفي بذكر الخلود ، فإن كلمة (أصحاب) تغني
عن الأبد ، فإنه صاحبها .
وهو من دقيق الإيجاز .

* * *

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

* * *

أطلق الإصابة فلم يذكر مفعولاً أو مكاناً لها أو زماناً أو غير ذلك ، فلم
يقُل (ما أصابكم) أو نحوه ، ولم يقل (في الأرض) أو ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أو غير ذلك .
وجاء بـ (من) الاستغرافية ، فحيثما حلت مصيبة ؛ فإن ذلك لا يكون
إلا بإذنه وأمره .

قد تقول : لقد قال في سورة الحديد : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ [الآية : ٢٢] .

فزاد ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ على ما في التغابن «وذلك لأنه فصل
في سورة الحديد في أحوال الدنيا والآخرة ما لم يفصله في التغابن ،
فكان المناسب أن يفصل ويزيد موافقة لما قبلها . جاء في سورة الحديد :
﴿ أَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَرْغَبٌ وَنَبَاهٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي

الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾
 سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا
 أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴿٢٢﴾ .

ولم يرد مثل ذلك في سورة التغابن ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿١٠﴾ مَا
 أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١١﴾ .

فأنت ترى أنه فصل وذكر في سورة الحديد ما لم يذكره في التغابن ؛
 ولذا زاد في التفصيل في الآية المذكورة موافقة لما قبلها»^(١) .

جاء في (البرهان) للكرماني أنه «فصل في هذه السورة وأجمل هناك
 موافقة لما قبلها في هذه السورة ، فإنه فصل أحوال الدنيا والآخرة فيها
 بقوله : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
 وَالْأَوْلَادِ ﴾»^(٢) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ما ذكره في سورة التغابن أعم
 مما ورد في سورة الحديد ، فقد قال في سورة الحديد : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ
 مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ فذكر المصيبة في الأرض أنفس
 المخاطبين .

(١) التعبير القرآني ١١٣ .

(٢) البرهان لمحمود بن حمزة الكرماني ٣٠٩ - ط ٢ دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
 ج.م.ع. ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

أما في سورة التغابن فإنه لم يخصص ، بل أطلق كما ذكرنا ، فقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ وهو يشمل كل شيء يمكن أن تقع فيه مصيبة ؛ ولذا ختم بقوله : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .
﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ .

قال بعد آية الحديد التي ذكر فيها المصيبة في الأرض والأنفس : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ .

وقال في آية التغابن : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ ، ولا شك أن قوله ﴿ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ أعم من قوله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ فإن هذا جزء من هداية القلب ، فهداية القلب عامة .

ولذا ذكر في تفسير ﴿ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ كلام كثير على العموم ، وأنه ليس نصاً في أمر واحد ، فقد قيل : إن معناه «يهدي قلبه لليقين» ، وقيل : «أي : يُلطف به ويشرحه لازدياد الخير والطاعة»^(١) .

وقيل : معناه : «يهدي قلبه عند المصيبة . . . للتسليم لأمر الله ، ونظيره قوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة ١٥٦-١٥٧] .

قال أهل المعاني : يهدي قلبه للشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء»^(٢) .

(١) انظر : روح المعاني ٢٨/١٢٤-١٢٥ ، الكشاف ٣/٢٣٨ .

(٢) تفسير الرازي ١٠/٥٥٥ .

وفي (فتح القدير) «يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء»^(١).

إن قوله ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يحتمل كل ما قيل ، فهو تعبير عام يحتمل عموم الهداية .

وواضح أن هذا أعم من قوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ .

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه ، فقد ناسب العموم العموم في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فأطلق المصيبة وأطلق الهداية .

وناسب الخصوصُ الخصوصَ في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ فعقب بقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ .

وهو من لطيف المناسبات .

ومن لطيف التناسب في السياقين أنه قال في آية الحديد: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ وبعدها: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ٢٢ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

وقال قبل آية التغابن: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِيرُ﴾ وبعدها قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ...﴾ الآية [الحديد: ٢٣] .

وواضح أن ماورد في آية التغابن أعم مما ورد في آية الحديد .
فقد قال في آية الحديد : ﴿ كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبَخْلِ .

وقال في التغابن : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ .

ولا شك أن المذكورين في آية الحديد هم قسم ممن لا يحبهم الله .
فما ورد في التغابن أعم وأشمل ، فقد يدخل المذكورون في سورة
الحديد فيمن ذكروا في آية التغابن .

فناسب العموم في التغابن ما ذكرناه من العموم .

وناسب الخصوص في آية الحديد ما ورد فيها من الخصوص .

ومن لطيف ذلك أيضاً ما ورد بعد قوله تعالى في التغابن :
﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وذلك قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٧) .

وقال بعد آية الحديد : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ .

ومن المعلوم أن قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أعم وأشمل من
قوله : ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ فهذا جزء من إطاعة الله وإطاعة الرسول .

فناسب العموم العموم من جهة أخرى .

وناسب الخصوص الخصوص .

ونلخص ما ورد في التناسب في العموم والخصوص في هذين

الموطنين من سورة التغابن والحديد بما يأتي :

١ - قوله في التغابن : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

وقوله في الحديد : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ .

وما في التغابن أعم .

٢ - قوله في التغابن : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ .

وقوله في الحديد : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ ﴾ .

وما في التغابن أعم .

٣ - وقوله في التغابن : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ .

وقوله في الحديد : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

وما في التغابن أعم ؛ إذ ما في الحديد إنما هو جزء من صفات الذين كفروا وكذبوا .

٤ - قوله في التغابن : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ .

وقوله في الحديد : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ .

وما في التغابن أعم ؛ إذ القيام بالقسط إنما هو جزء من إطاعة الله وإطاعة الرسول .

٥ - قوله في التغابن: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

وقوله في الحديد: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ .

وظاهر أن ما في التغابن أعم ، فقد جعل علمه عاماً بكل شيء ، وأما في الحديد فالكلام على المصيبة .

* * *

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢] .

* * *

قال ههنا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ [التغابن: ١٢] .

وقال في المائدة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٦﴾ .

فزاد في آية المائدة قوله: ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ وقوله: ﴿فَأَعْلَمُوا﴾ «مع اتحاد ما تضمنته الآيتان فيما سوى ذلك .

وسبب ذلك - والله أعلم - أن آية المائدة سبقها الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها من المحرمات وما تجره عليهم هذه المحرمات من شرور فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ .

فناسب ذكر هذه الزيادة لتأكيد التحذير .

أما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد ، ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلما لم يرد هنا نهى عن محرم متأكد التحريم . . . لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك ، فجاء كل على ما يجب ويناسب ، وليس عكس الوارد بمناسب ، والله أعلم^(١) .

وقد ذكرنا في كتابنا (التعبير القرآني) أنه قد ورد في القرآن : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ بتكرار لفظ الطاعة ، وورد نحو قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢] من دون تكرير لفظ الطاعة .

وقد ذكرنا أن ما لم يتكرر فيه لفظ الطاعة مع الرسول فالسياق لله وحده ، ولم يذكر فيه الرسول ولا أية إشارة إليه ؛ بخلاف ما تكرر فيه لفظ الطاعة مع الرسول^(٢) .

وهنا تكرر لفظ الطاعة ، وقد ذكر الرسول في السياق فقال : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

والبلاغ المبين أي : المبين للحق ، المظهر له ، والذي يصل إلى عموم المكلفين .

«فالبلاغ المبين يتضمن أمرين :

(١) التعبير القرآني ١٠٩ - ١١٠ ، ملاك التأويل ١ / ٢٧٥ .

(٢) انظر : التعبير القرآني ١٥٣ .

الأمر الأول: إيضاح الرسالة وتبليغها كلها ؛ بحيث لا يبقى منها شيء غير مبلغ ولا غير معلوم .

والأمر الآخر: أن يكون التبليغ شاملاً لكل من أرسل إليهم ، واصلاً إلى كل فرد ، فلا يترك سبيلاً لإيصال الدعوة إلى كل من تعنيه . وإلا لم يكن بلاغاً مبيناً^(١) .

لقد قال ههنا : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ .

بإضافة الرسول إلى ضمير التعظيم .

وكذا قال في آية المائدة : ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ .

وقال في موضع آخر : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ [البور ٥٤] ، [العنكبوت : ١٨] بتعريف الرسول بـ (أل) .

ولذلك أكثر من سبب ، ولعل منها :

أنه في آيتي التغابن والمائدة أن القول لله سبحانه ، والخطاب منه سبحانه ، إذ قال قبل آية التغابن : ﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ... ﴾ ويستمر الكلام على الله سبحانه ، فلما كان الكلام من الله سبحانه والأمر منه قال : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ بإضافة الرسول إليه .

وكذا السياق في آية المائدة ؛ فإن الخطاب من الله للمؤمنين ، قال تعالى قبل هذه الآية : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ

(١) على طريق التفسير البياني ٢ / ٦٠ .

مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ ويستمر الكلام إلى أن يقول:
﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا... فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ .
فأضاف الرسول إلى ضميره سبحانه .

أما قوله: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ في العنكبوت ، فهذا من
كلام سيدنا إبراهيم لقومه على ما يظهر^(١) .

﴿ وَإِذْ رَهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ... وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ
أُمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ .

فهنا أمران :

الأول : أنه من كلام سيدنا إبراهيم .

والآخر : أنه يتكلم على الأمم السابقة ورسلمهم : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ
كَذَّبَ أُمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿١٩﴾ .

و(أل) ههنا للجنس وليست خاصة برسول معين ، فناسب التعريف بـ
(أل) الجنسية .

وأما آية النور فإنها تبدأ بقوله : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ فهو أمر
لِلرَّسُولِ أن يبلغ قومه ، فقوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ من قول
الرَّسُولِ المأمور بتبليغه ، والكلام فيما بعد على الغائب وليس فيه إشارة
لفظية صريحة إلى الله سبحانه ، بل السياق أصلاً في الغيبة. والآية

(١) انظر: روح المعاني ٢٠/١٤٥ .

هي : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ النور : ٣٤ .

ومن الملاحظ في الآية :

- ١ - أنها تبدأ بأمر الرسول ليبلغ ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ .
- ٢ - أنه قال : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ بالبناء للمجهول ، والفاعل محذوف ، والذي حمل رسول الله وحملكم إنما هو الله فلم يذكره .

- ٣ - أنه قال : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ ولم يقل : (على رسولنا) مناسبة لحذف الفاعل .

فعدم الإضافة إلى ضمير المتكلم ، وهو الله مناسب لعدم ذكر الفاعل وهو الله سبحانه ، وذلك للبناء للمجهول .

- ٤ - قال في آية النور : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ والأصل (تولوا) فحذف التاء من الفعل ، والكلام موجه للمخاطبين بدليل ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ بالخطاب ، فحذف التاء من (تولوا) فصار ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ وهذا الحذف مناسب لحذف الفاعل في الفعلين وبنائهما للمجهول .

- ٥ - قال في آية النور : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ بالفعل المضارع كما ذكرنا ، أي : (تولوا) ، وقال في آيتي المائدة والتغابن ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ بالفعل الماضي .

ولعل من أسباب ذلك أن السياق الذي وردت فيه آية النور في الاستقبال ، فقد قال قبل الآية : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ

لِيُخْرِجُنَّ قُلَّ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ .

فقوله: ﴿لَيْنَ أَمْرَتَهُمْ لِيُخْرِجُنَّ﴾ إنما هو افتراض لما سيقع في المستقبل.

فناسب ذلك الإتيان بالفعل المضارع الذي قد يكون للاستقبال ،
فناسب الاستقبال الاستقبال .

وأما ما ذكر في سياق آية التغابن فهو في حال المخاطبين ممن كانوا على الكفر ، وقد دعاهم إلى الإسلام: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَيُبْعَثَنَّ... فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .

بل حتى إن الآية قبلها في الماضي ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الآية: ١١] .

فقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: بقيتم على حالكم من الكفر.

وكذلك الأمر في سياق آية المائدة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ .

وقد كان قسم من المسلمين يشربون الخمر حتى نزول هذه الآية ،
فلما نزلت قالوا: انتهينا^(١) .

فقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: بقيتم على حالكم الماضية

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٩٥/٢ ، فتح القدير ٧٠/٢ .

وأعرضتم عن أمر ربكم ، فجاء بالفعل الماضي مناسبة لما كان يقع في الماضي .

بمعنى : فإن بقيتم على ما كنتم عليه أو على ما أنتم عليه..

ويدل على ذلك أنه حيث قال : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أراد التولي في الاستقبال .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾

[محمد : ١٣٨] .

والخطاب للمؤمنين ، ويراد به افتراض التولي في المستقبل ، قال تعالى : ﴿ هَآأَنَـتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ .

والخطاب كما ذكرنا للمؤمنين ، فقد قال في السياق مخاطباً المؤمنين : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَكْمَلَتُمْ ﴾ .

ويستمر في خطابه إلى أن يقول في الآية : ﴿ هَآأَنَـتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

والمدعو للإنفاق في سبيل الله هم المؤمنون وليسوا الكافرين ، فالتولي هو في المستقبل ، أي : التولي عما طلب منهم .

وقال سبحانه في آية أخرى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْتَلُونَهُمْ أَوْ تَسْلِمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤَيِّدُكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا

تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ [الفتح: ١٦] .

وواضح أن الأمر يتعلق بالاستقبال ، وأن التولي افتراض لما سيكون في المستقبل ، فجاء بالفعل الذي يفيد الاستقبال وهو المضارع .

* * *

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التغابن: ١٣] .

* * *

بعد أن ذكر أن الله خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وذكر علمه بكل شيء وأنه على كل شيء قدير ، وذكر عقوبة من كفر من الأمم السابقة ، وأنه ما أصابت مصيبة إلا بإذن الله ؛ بين أنه لا إله الا هو .

فالذي فعل كل ذلك إنما هو الإله الحق وأنه لا إله غيره .

وأنه عليه فليعتمد المؤمنون ويفوضوا أمرهم إليه . وقدم الجار والمجرور (عليه) للحصر فلا يعتمد على غيره .

جاء في (روح المعاني): «﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ أي : عليه تعالى خاصة دون غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً .

﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وإظهار الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلّة التوكل أو الأمر به»^(١) .

وأطلق التوكل ولم يقيده بأمر ؛ ليدل على أن التوكل عليه في جميع الأمور جليلها وحقيرها .

جاء في (روح المعاني): «وحذف متعلق التوكل ليفيد العموم ، أي : ليتوكل عليه عز شأنه في جميع أمورهم ؛ جليلها وحقيرها ، سهلها وحزنها»^(١).

إن هذه الآية في سياقها كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣] .

فقوله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ في هود ، نظير قوله في التغابن : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ وقوله : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله في آية هود : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ نظير قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الآية ١١] وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فالذي له الملك هو الذي يرجع إليه الأمر كله .

وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ مناسب لقوله في التغابن : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ مناسب لقوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وجاء في (تفسير ابن كثير) في قوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ : «فالأول خبر عن التوحيد ، ومعناه :

الطلب ، أي : وحدوا الإلهية له وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] «^(١) .

* * *

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

* * *

إن من الأزواج من يعادين أزواجهن ويجلبن عليهم ويخاصمنهم ، ومن الأولاد من يعقون آباءهم ويخاصمونهم ويؤذونهم .

ففي مثل هذه الحالات تكون الأزواج أعداء لأزواجهن ، والأولاد أعداء لآبائهم .

وقد تكون الأزواج والأولاد ملهاة عن العمل الصالح .

وقد يحملونهم على ترك الواجبات وارتكاب المحظورات ، وذلك لحبهم لهم والشفقة عليهم ، وفي مثل هذه الحالات يكون الأولاد أعداء لآبائهم ، والأزواج أعداء لأزواجهن من هذه الناحية .

وقد ناسبت هذه الآية ما قبلها من هاتين الناحيتين .

فمن الناحية الأولى ، وهي حالات الخصومة والأذى ، ناسب ذلك ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الآية : ١١] فهذه مصيبة من المصائب .

وفي الحالة الأخرى يناسب ذلك قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ .

فعلى المؤمنين أن يطيعوا الله والرسول ، ولا يطيعوا الأزواج والأولاد.

وذلك من لطيف التناسب .

جاء في (روح المعاني): «فمن الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ، ويخاصمنهم ويجلبن عليهم .

ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى . وقد شاهدنا من الأزواج من قتلت زوجها . . . ومن ومن . . . وكذا من الأولاد . . .

ومن الناس من يحمله حبههم والشفقة عليهم على أن يكونوا في عيش رغد في حياته وبعد مماته ، فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك وإن لم يطلبوه فيهلك»^(١) .

وجاء في (تفسير ابن كثير) أن ذلك «بمعنى أنه يلتهى به عن العمل الصالح كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ .

(١) روح المعاني ١٢٦/٢٨ ، وانظر: البحر المحيط ٢٧٩/٨ .

(وقيل) يحمل الرجل على قطيعة الرحم ، أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه»^(١).

﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

أي : إن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها مما هو في حقكم أو في أمور الدنيا ومما يصح لكم أن تعفوا عنه .

وتصفحوا ، أي : تعرضوا عن ذلك بترك التثريب واللوم .

وتغفروا ، أي : تستروها بإخفائها^(٢) .

فإن الله غفور رحيم ، يغفر لعباده ذنوبهم مع أنه أولى بالطاعة ، رحيم بهم مع إساءتهم ومعصيتهم .

وأنتم إن فعلتم ذلك يغفر الله لكم ويرحمكم .

فقلوه : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ متعلق بما قبله من جهتين :

أنه إذا فعل أزواجكم وأولادكم ما يستوجب العقوبة والتثريب فاعفوا عنهم واغفروا لهم ، فإن الله غفور رحيم يغفر لعباده وإن أذنبوا وعصوا ربهم ، مع أنه أولى بالطاعة من الآباء .

وأنكم إذا فعلتم ذلك فعفوتهم وغفرتهم فإن الله غفور رحيم ، يغفر لكم ويرحمكم ، وأنتم أحوج إلى مغفرته ورحمته من أولئك إليكم .

* * *

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٦ .

(٢) انظر : روح المعاني ٢٨/ ١٢٦ ، فتح القدير ٥/ ٢٣٢ .

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

* * *

أي : إن الأموال والأولاد اختبار وامتحان من الله للعبد ليعلم من يطيعه ممن يعصيه .

وقدمت الأموال على الأولاد ؛ لأنها أعظم ابتلاء واختباراً ، كما قال تعالى : ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [المنافقون : ٩] قدم الأموال على الأولاد ؛ لأن الالتهاؤ بها أكثر .

جاء في (تفسير ابن كثير) : «إنما الأموال والأولاد فتنة ، أي : اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه»^(١) .

وجاء في (فتح القدير) : «﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي : بلاء واختبار يحملونكم على كسب الحرام ومنع حق الله فلا تطيعوهم في معصية الله»^(٢) .

وجاء في (روح المعاني) : «أي : بلاء ومحنة ؛ لأنهم يترتب عليهم الوقوع في الإثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك .

وفي الحديث : «يؤتى برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته» .

وعن بعض السلف : العيال سوس الطاعات .

(١) ابن كثير ٤/ ٣٧٦ .

(٢) فتح القدير ٥/ ٢٣٦ .

وقد مت الأموال ، قيل : لأنها أعظم فتنة ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ [٦] أن رَأَاهُ أَسْتَفْقَى ﴿ [العلق: ٦ - ٧] .. . وكأنه لغلبة الفتنة في الأموال والأولاد لم تذكر (من) التبعية كما ذكرت فيما تقدم ^(١) .

والحق أنها لا تحتاج إلى ذكر (من) لأن الأموال كلها والأولاد كلهم اختبار وامتحان من الله ، بل إن الحياة كلها اختبار ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢] .

﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

لقد قال في موطن آخر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٢] فأكد ذلك بـ (إن) ولم يؤكد في آية التغابن ؛ ذلك لأن الأجر في التوبة أعظم ؛ لأن العمل أعظم . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [٢٠] يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿ ٢١ ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فإنه لم يذكر عملاً في التغابن ، وإنما قال : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ بخلاف ما ورد في سياق آية التوبة ، فقد ذكر الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

وذكر الأجر لهؤلاء ، وهو أنه يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً .

(١) روح المعاني ١٢٦/٢٨ وانظر: الكشاف ٢٣٨-٢٣٩ ، البحر المحيط ٢٧٩/٨ - ٢٨٠ .

ولاشك أن هذا الأجر أعظم ؛ لأن العمل أعظم ، فناسب التوكيد في آية التوبة دون آية التغابن .

* * *

﴿ فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٦) .

* * *

فاتقوا الله في أزواجكم واتقوا الله في أولادكم واتقوا الله في أموالكم واتقوا الله في كل ما يجب اتقاؤه .

وأطلق الاتقاء ولم يقيده بشيء ؛ ليعم كل ما يجب اتقاؤه .
﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ .

أي : على قدر استطاعتكم وطاقتكم . جاء في (روح المعاني) : «أي : ابذلوا في تقواه عز وجل جهدكم وطاقتكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبير قال : لما نزلت : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقبيهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين ﴿ فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فنسخت الآية الأولى وعن مجاهد : المراد أن يطاع سبحانه فلا يعصى» (١) .

﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ ما توعظون به ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها» (٢)

(١) روح المعاني ١٢٧/٢٨ ، وانظر : ابن كثير ٣٧٧/٤ .

(٢) الكشف ٢٣٩/٣ .

وفي غير ذلك من وجوه البر .

وقدم تقوى الله ؛ لأنها مدعاة إلى ما بعدها من السمع والطاعة والإنفاق .

وحيث اجتمعت التقوى والطاعة قدم التقوى . قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١] .

وقال في آيات عدة : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء : ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢٦] .

وقال : ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ [نوح : ٣] .

وقدم السمع على الطاعة ؛ لأنه قبلها فإنه يطاع ما يسمع ، فالإنسان يسمع ثم يطيع ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [النساء :

[٤٦] .

وقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

ولذا يقول المجيب : (سمعا وطاعة) فيقدم السمع .

وأخر الإنفاق ؛ لأنه أثر لما قبله ، فهو أثر التقوى والسمع والطاعة .

ثم إن ما قبله أهم وأعم ، فما قبله يعم عموم المسلمين ، فالتقوى وطاعة الله ورسوله تشمل عموم المسلمين وعموم الطاعات .

أما الإنفاق فهو خاص بذوي المال ، أما من ليس عنده مال فلا يشملُه هذا الأمر .

وذكر الإنفاق مناسبة لما قبله وما بعده .

فإنه قال قبل ذلك : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي : اختبار وامتحان ، والإنفاق من الاختبار .

وقال بعدها : ﴿ إِن تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ ﴾ .

فناسب ذكر الإنفاق .

﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

قال (شح نفسه) لأن الشح من طبائع النفوس ، قال تعالى : ﴿ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨] .

والشح : «بخل مع حرص»^(١) وقيل : هو أشد البخل ، وهو أبلغ في المنع من البخل .

وقيل : البخل في أفراد الأمور وآحادها ، والشح عام ، وقيل : البخل بالمال والشح بالمال والمعروف^(٢) .

قال تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ قيل : بكل ما فيه منفعة للمؤمنين^(٣) .

(١) المفردات في غريب القرآن (شح) .

(٢) تاج العروس (شح) .

(٣) البحر المحيط ٢٢٠ / ٧ وانظر : روح المعاني ١٦٤ / ٢١ .

فمن يوق شح نفسه وما جبلت عليه من ذلك فهو مفلح ، بل هو المفلح .

* * *

﴿ إِن تَقْرَضُوا آلَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧] .

* * *

القرض الحسن : هو أن يكون المال حلالاً طيباً ، وأن يكون من كريم المال ، وأن يكون المقرض طيب النفس مع بشاشة وجه من دون من ولا تكدير^(١) .

و«أتبع جوابي الشرط بوصفين أحدهما: عائد إلى المضاعفة ، إذ شكره تعالى مقابل للمضاعفة ، وحلمه مقابل للغفران»^(٢) .

والشكور: هو الذي «يجزي على القليل بالكثير» .

والحليم «يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات»^(٣) .

«ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة»^(٤) .

(١) انظر: (على طريق التفسير البياني) ١/ ٢٥٣ ، روح المعاني ٢٧/ ٢٦٦ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٨٠ .

(٣) ابن كثير ٤/ ٣٧٧ .

(٤) فتح القدير ٥/ ٢٣٢ .

والشكور من صيغ المبالغة ، ويستعملها ربنا في سياق مضاعفة الأجر والزيادة من فضله . قال تعالى : ﴿ لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٠] .

وقال : ﴿ وَمَن يَتَرَفَّ حَسَنَةً نَّزَدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى : ٢٣] .

وقال هاهنا : ﴿ إِن تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ^(١) .

وحيث ذكر الشكور صفة لله تعالى ذكر معها المغفرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٠] .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى : ٢٣] .

وقال هاهنا في آية التغابن : ﴿ إِن تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ فذكر المغفرة إضافة إلى مضاعفة الأجر .

وهذا من المبالغة في الشكر .

* * *

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(١٨) .

* * *

قوله ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ يناسب قوله في أول السورة ﴿ يَعْلَمُ مَا

(١) انظر : من أسرار البيان القرآني ٣٣ .

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿التغابن: ٤﴾ .

ويناسب قوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ .

وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يناسب قوله في أول السورة:

﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وما بعدها من الآيات .

وقد ذكرنا اجتماع هذين الاسمين الجليلين (العزیز الحكيم) ودلالة ذلك في تفسيرنا لسورة الصف^(١) .

فلا نعيد الكلام في ذلك .

* * *

(١) انظر: كتابنا (على طريق التفسير البياني) ٢٠٣/١ وما بعدها .

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ (١) ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَثَتْ ﴾ (٢) ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ (٣) ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴾ (٤) ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (٥) ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ (٦) ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (٧) ﴿ فِي أَيِّ شُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٨) ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ (٩) ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ (١٠) ﴿ كِرَامًا كَذِبِينَ ﴾ (١١) ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١٢) ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (١٣) ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (١٤) ﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ (١٥) ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ (١٦) ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ (١٧) ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ (١٨) ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .

* * *

قال سبحانه في السورة التي قبلها: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (١) ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ (٢) [التكوير: ٢] فذكر ما في السماء ولم يذكر ما حصل للسماء ، فذكر أن الشمس كورت ، أي: لُفَّت كما تُلفَت العمامة .

وقيل: إن المراد إذهاب ضوئها وإنها أظلمت .

وذكر أن النجوم انكدرت ، ومن معاني الانكدار: التغير ، فقيل: إن

معناها انطمس نورها ، من قولهم : ماء كدر ، أي : متغير^(١) .

وأما في سورة الانفطار فقد ذكر انفطار السماء وانتشار الكواكب .

ففي سورة التكوير ذكر أن الكواكب انكدرت ، ويحتمل المعنى تساقطها ، كما يحتمل ذهاب ضوئها .

وأما في سورة الانفطار فقد ذكر انتشار الكواكب تصريحاً ، وهي مرحلة بعد ما ذكر في سورة التكوير .

ثم ذكر في سورة بعدها انشقاق السماء فقال : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١] والانفطار قبل الانشقاق .

فكان ترتيب السور بحسب توالي الأحداث الطبيعية وتسلسلها .

* * *

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ .

* * *

جاء بـ ﴿ إِذَا ﴾ للدلالة على أن هذا أمر حاصل ولا بد ؛ لأن ﴿ إِذَا ﴾ إنما تكون للمقطوع بحصوله أو الكثير الوقوع .

جاء في (المقتضب) : « فإذا قلت (إذا أتيتني . . .) وجب أن يكون الإتيان معلوماً .

ألا ترى إلى قول الله عز وجل : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ إن هذا واقع لا محالة .

(١) انظر : البحر المحيط ٤٢٣/٨ ، روح المعاني ٥٠/٣٠ - ٥١ .

ولا يجوز أن يكون في موضع هذا (إن) لأن الله عز وجل يعلم . و(إن) إنما مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر ، وليس هذا مثل قوله : ﴿ إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٢٨] لأن هذا راجع إليهم^(١) .

وقدمت ﴿ السَّمَاءُ ﴾ على الفعل ﴿ أَنْفَطَرَتْ ﴾ للتهويل ، فقد « يكون التقديم للتهويل كقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ [١] وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ [٢] وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ وكقوله : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ فإن في تقديم المسند إليه تهويلاً لا تجده في التأخير .

ألا ترى أن السماء لم يسبق لها أن انفطرت ، ولا الكواكب انتشرت ، ولا البحار فجرت ، ولا الشمس كوّرت ، فهذه الأجرام مستقرة على حالتها الدهور المتطاولة والأحقاب المتوالية ، حتى ذهب بعض الناس إلى أنها على حالها منذ الأزل ، وستبقى كذلك أبداً ؛ ولذلك قدمها إشارة إلى الهول العظيم والحدث الجسيم الذي يصيب هذه الأجرام . ألا ترى إلى قوله تعالى مثلاً ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] كيف أخر المسند إليه ؛ لأن الزلزلة معهودة مستمرة الحصول ، بخلاف ما سبق .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ إِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ ﴾ [٧] وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ [القيامة : ٧ - ٨] ولم يقل (إذا القمر خسف) لأن خسوف القمر معتاد الحصول ، ونحوه بريق البصر^(٢) .

* * *

(١) المقتضب ٢/ ٥٦-٥٥ ، وانظر : الطراز ٣/ ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) معاني النحو ٢/ ٤٧٤ - ٤٧٥ .

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴾ .

* * *

أي: تساقطت متفرقة^(١) ، وذلك بعد انفطار السماء ، وهذه مرحلة بعدها. جاء في (التفسير الكبير): «﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴾ لأنه عند انتفاض تركيب السماء لا بد من انتشار الكواكب على الأرض... (فإنه) يلزم من تخريب السماء انتشار الكواكب»^(٢).

ولا يلزم من انتشار الكواكب أن يكون على الأرض ، فقد يكون انتشارها في الجو.

ثم انتقل إلى ما في الأرض ، وهو تفجير البحار وبعثرة القبور فقال:

* * *

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ .

* * *

«وتفجيرها من امتلائها ، فتفجر من أعلاها وتفيض على مايلها ، أو من أسفلها فيذهب الله ماءها حيث أراد»^(٣).

وقيل: «﴿ فُجِرَتْ ﴾ فتح بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالمالح ،

(١) روح المعاني ٦٣/٣٠ .

(٢) التفسير الكبير ٧٢/٣١ - ٧٣ .

(٣) البحر المحيط ٤٣٦/٨ .

وزال البرزخ الذي بينهما ، وصارت البحار بحراً واحداً^(١) .

وجاء في (التحرير والتنوير): «وتفجير البحار: انطلاق مائها من مستواه وفيضانه على ما حولها من الأرضين ، كما يتفجر ماء العين حين حفرها . . . وبذلك التفجير يعم الماء على الأرض فيهلك ما عليها ويختل سطحها»^(٢) وذلك من امتلائها .

وقال ﴿ فُجِّرَتْ ﴾ بتشديد الجيم للكثرة والمبالغة^(٣) .

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠] فقال ﴿ تَفْجُرُ ﴾ بالتخفيف لأنه ذكر ينبوعاً .

وقال: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [النمر: ١٢] فقال (فجّرنا) بالتشديد ، وذلك لأنها عيون وليست ينبوعاً واحداً .
وقال: ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنَبٍ فَتَفْجَرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾

[الإسراء: ٩١] .

فقال: ﴿ فَتَفْجَرُ ﴾ بالتشديد ؛ لأنه ذكر الأنهار .

* * *

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتِ ﴾ .

* * *

قال مهنا: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتِ ﴾ .

(١) الكشف ٣ / ٣١٩ وانظر: تفسير الرازي ٣١ / ٧٢-٧٣ ، روح المعاني ٣٠ / ٦٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ١٧١-١٧٢ .

(٣) انظر: لسان العرب (فجر) .

وقال في سورة بعدها ، وهي سورة (العاديات) : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ ﴾ [العاديات : ٩] .

فذكر في هذه السورة بعثرة القبور ، وذكر فيما بعدها بعثرة ما فيها ، وهو من تناسب وقوع الأحداث وتسلسلها ، فالقبور تبعثر أولاً ، ثم يبعثر ما فيها فيما بعد ، ووضع التعبيران وضعاً فنياً متناسقاً ، فذكر بعثرة القبور في السورة المتقدمة ، ووضع بعثرة ما فيها في سورة بعدها ، وذلك نظير قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ كما أسلفنا .

* * *

﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴾

* * *

قيل : إن معنى (ماقدم وأخر) «ما أسلف من عمل خير أو شر ، وأخر من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده»^(١) .

وقيل : «أي : يعلم كل أحد في هذا اليوم ما قدم فلم يقصر فيه ، وما أخر مقصراً فيه ، لأن (ماقدمت) يقتضي فعلاً ، و(ماأخر) يقتضي تركاً وتقصيراً وتوفيراً» .

فإن كان قدم الكبائر وأخر العمل الصالح فمأواه النار ، وإن كان قدم العمل الصالح فمأواه الجنة^(٢) .

(١) روح المعاني ٦٣/٣٠ .

(٢) التفسير الكبير للرازي ٧٣/٣١ .

لقد قال في هذه السورة: ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

وقال في سورة التكوير: ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

«فقال في سورة الانفطار: ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

وقال في سورة التكوير: ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ ذلك أنه قال في

سورة التكوير: ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ أي: أحضرت وقربت ، فناسب ذلك إحضار الأعمال ، فإن الذي يطلب شيئاً عليه أن يُحضر ثمنه ، ثم إن إحضار الجنة مناسب لإحضار الأعمال .

ولم يقل مثل ذلك في سورة الانفطار وإنما قال: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتِ ﴾

فليس ثمة تقريب لشيء ، وإنما ذلك يحصل قبل الحساب ، فناسب أن يذكر الإنسان ما قدم وأخر ، فإنه سيسأل عن ذلك كله»^(١) .

* * *

﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ .

* * *

أي: ما الذي خدعك وجراك على ربك الكريم الذي خلقك وأفاض

عليك بالنعم ، القادر على كل شيء ، فتعصيه وتخالف أوامره؟

أهذا جزاء كرمه وإحسانه وتفضله عليك؟

أتحسب أن الكريم لا يعاقب من عصاه وأعلن محاربته؟

(١) من أسرار البيان القرآني ١٦٨ .

أيعصي الإنسان ربه الذي أوجده وأحسن إليه وغذاه بالنعم وقام على أمره؟

أهكذا يكون جزاء المربوب للرب؟

وقد قال هاهنا: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ بذكر (الرب) ، ولم يقل : (ماغرك بالله) وذلك لأن في لفظ (الرب) معنى التربية والرعاية والإحسان والسيد ومتولي أمره ، فتكون الإساءة إليه بهذا المعنى أقبح وأعظم .

فإن من أساء إلى من رباه وأحسن إليه وقام على أمره كانت إساءته أبلغ وأقبح ممن أساء إلى غيره .

ثم وصفه بالكرم فقال: ﴿ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ولم يقل ﴿ بِرَبِّكَ ﴾ من دون وصف ؛ لتكون الإساءة أشد ، والعصيان أعظم ، أفيكون الكرم مدعاة إلى الإساءة والعصيان أم إلى الطاعة؟

ثم ذكر من الصفات ما يبين حمقه وجهله وقبح معصيته .

فإنه غره - والله - حمقه وجهله وشيطانه ، فقد «زين له المعاصي ، وقال له : افعل ما شئت ، فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولاً ، وهو متفضل عليك آخرأ حتى ورطه»^(١) .

جاء في (روح المعاني): «أي : أي شيء خدعك وجراك على عصيانه تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأنه عز شأنه؟ وقد علمت ما بين يديك وما سيظهر من أعمالك عليك والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره

سبحانه من صفات الجلال المانعة ملاحظتها عن الاغترار للإيمان بأنه
نيس مما يصلح أن يكون مداراً لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له :
افعل ما شئت ، فإن ربك كريم ، قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله
في الآخرة... بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان
والطاعة ، والاجتناب عن الكفر والعصيان ، دون العكس»^(١).

وجاء في (الكشاف) : «معناه أن حق الإنسان أن لا يغتر بتكرم الله
عليه ، حيث خلقه حياً لينفعه ، وبتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعد ما
مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب
وطرح العقاب اغتراراً بالتفضل الأول»^(٢).

قد تقول : لقد قال هاهنا : ﴿ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ أَكْبَرُ ﴾ فذكر الرب .

وذكر الاغترار بالله في أكثر من موضع فقال : ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾
[نحيد : ١٤] وقال : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [القمان :
٣٣] ، [فاطر : ٥] .

فما سبب ذاك ؟

فنقول : إن السياق مختلف ، فإنه في هذه السورة إنما هو في سياق
ذكر تعداد النعم عليه ، فناسب ذكر الرب .

أما في آية الحديد فهي في الآخرة ، والكلام موجه من المؤمنين إلى

(١) روح المعاني ٦٣/٣٠ .

(٢) الكشاف ٣١٩/٣ .

المنافقين ، وذكر معاصيهم واستحقاقهم النار ، قال تعالى : ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ
بِسُورِ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا
بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ
بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ
مَوْلَانَكُمْ وَيُسَّ الْمَصِيرُ .

فالمقام مختلف .

وكذلك في لقمان ، فإن المقام مقام تحذير لا مقام تعداد للنعم ، فقد
قال : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ
جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا
يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [لقمان : ٣٣] .

وقد تقول : لقد قال : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ فذكر الرب .

فنقول : إن السياق في ذكر الآباء والأبناء ، وأنه لا يجزي أحدهما عن
الآخر ، والأب هو مربّ لابنه وموجه له ومعلم ومرشد وقيم عليه ،
فناسب ذكر الرب .

وكذلك سياق آية فاطر ، فإنها ليست في تعداد النعم ، وإنما في
تذكيرهم الآخرة ، فقد قال : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ
تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴾ (٤) يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ
الْغُرُورُ .

فناسب كل تعبير موضعه .

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ ﴾ .

* * *

ذكر جملة من الصفات الدالة على كرمه سبحانه والإحسان إلى الإنسان ، والتي تدعو إلى طاعته وعدم معصيته ، وذكر بعد ذلك ما يدعو إلى عدم الاغترار بكرمه سبحانه من قدرته ، وعدم تركه عباده يفعلون ما يشاؤون من دون حساب أو جزاء .

جاء في (روح المعاني): «صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم موحية إلى صحة ما كذب من البعث والجزاء موطئة لما بعد ، حيث نبهت على أن من قدر على ذلك بدءاً أقدر عليه إعادة»^(١).

ومعنى (سواك): جعلك سالم الأعضاء .

و(عدلك): صيرك معتدلاً متناسب الخلق ، أو خلقت خلقه حسنة مفارقة لسائر الخلق^(٢) ، أو صرفك عن خلقه غير ملائمة^(٣) .

وبدأ بالخلق فالتسوية فالعدل ؛ لأن هذا هو الترتيب الطبيعي .

ولذا حيث ذكر الخلق والتسوية بدأ بالخلق ، وذلك في أكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عِلْفَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ [القيامة : ٣٨] .

وقال : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١ - ٢] .

(١) روح المعاني ٦٤ / ٣٠ .

(٢) انظر: الكشف ٣ / ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٣) انظر: روح المعاني ٦٤ / ٣٠ .

وقال: ﴿ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف:

. ١٣٧

وقال: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۚ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧-٩] .

وقال: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١-٧٢] .

جاء في (التحرير والتنوير): «وفرع فعل (سواك) على (خلقتك) وفعل (عدلك) على (سواك) تفريعاً في الذكر ؛ نظراً إلى كون معانيها مترتبة في اعتبار المعبر وإن كان جميعاً حاصلًا في وقت واحد ، إذ هي أطوار التكوين من حين كونه مضغّة إلى تمام خلقه ، فكان للقاء في عطفها أحسن وقت ، كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾»^(١) .

* * *

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

* * *

(ما) تحتمل أن تكون مزيدة للإبهام نحو: (أعطيته شيئاً ما) و (لأمر ما جدد قصير أنفه) .

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٦ - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس .

والمعنى: في أي صورة شاءها ربنا ربك ، من: حسن وقبح ، وطول وقصر ، أو غير ذلك .

وقوله: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ ﴾ متعلق بـ ﴿ رَكَّبَكَ ﴾ أي: ربك في أي صورة شاءها ربنا .

وجملة ﴿ شَاءَ ﴾ صفة ، والعائد محذوف .

جاء في (الكشاف): « ﴿ مَا ﴾ في ﴿ مَا شَاءَ ﴾ مزيدة ، أي: ربك في أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح ، والطول والقصر ، والذكورة والأنوثة ، والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه»^(١) .

ويجوز أن تجعل (أي) شرطية^(٢) نحو قولك: (في أي كتاب تقرأ أقرأ) و(إلى أي بلد تذهب أذهب)

كما يجوز أن تجعل (ما) في معنى الشرط والجزاء^(٣) ، كقولنا: (ما قال فعل في كل أمر) و(ما يسمع يحفظ من كل شعر) .

كما يحتمل أن تكون موصولة^(٤) .

والتقدير في الآية على هذا: (ما شاء ربك في أي صورة) .

و(ما) شرطية أو موصولة .

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠ ، وانظر: البحر المحيط ٨/ ٤٣٧ ، روح المعاني ٣٠/ ٦٤ .

(٢) انظر: روح المعاني ٣٠/ ٦٤ .

(٣) انظر: تفسير الرازي ٣١/ ٧٦ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٧ .

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ ﴾ على معنى الحال ، أي : ركبك كائناً في أي صورة ،
أو حاصلًا في أي صورة. جاء في (البحر المحيط) : «وقيل : يتعلق
بمحذوف ، أي : ركبك حاصلًا في بعض الصور»^(١).

* * *

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾

* * *

أي : ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله «وجعله ذريعة إلى الكفر
والمعاصي ، مع كونه موجباً للشكر والطاعة»^(٢).

والذين يحتمل معنى الجزاء ، أي : تكذبون بالجزاء ، ويحتمل أن
يكون المعنى التكذيب بدين الإسلام. جاء في (الكشاف) : «وهو الجزاء
أو دين الإسلام ، فلا تصدقون ثواباً ولا عقاباً ، وهو شر من الطمع
المنكر»^(٣).

وهم يكذبون بهما جميعاً.

وقد يذكر التكذيب بيوم الدين ، فيذكر اليوم إذا كان السياق في
ذلك ، وذلك نحو قوله تعالى في سورة المطففين : ﴿ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ۖ ۝١١ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ ٱلَّذِينَ ۝١٢ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ ۖ ۝١٣ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٤ ﴾ .

فذكر التكذيب بيوم الدين ؛ ذلك لأن السياق في ذكر اليوم ، فقد قال

(١) البحر المحيط ٤٣٧/٨ .

(٢) روح المعاني ٦٥/٣٠ وانظر : الكشاف ٣/٣٢٠ .

(٣) الكشاف ٣/٣٢٠ .

سبحانه في سياق هذه الآيات: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١٠﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فذكر اليوم العظيم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ، فناسب ذكر التكذيب بيوم الدين .

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٢﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١٣﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ .

يعني : أنكم تكذبون بالجزاء والحال أن عليكم حافظين مراقبين يكتبون ماتفعلونه استعداداً ليوم الجزاء ؛ ليحاسبكم ربكم على أعمالكم ويجزيكم بها .

ووصفهم بالكرام تعظيم لهم وللمهمة التي أسندت إليهم ، فإذا كانت المهمة عظيمة أسندت إلى عظيم كبير ، وذلك تعظيم ليوم الدين الذي سيكون الجزاء على ما يقدمه هؤلاء الحفظة الكتبة الكرام .

ومن جهة أخرى أن وصف الحافظين بالكرام مناسب لوصفه سبحانه ذاته العلية بقوله : ﴿مَا غَرَّكَ رَبُّكَ أَلَكِرِيمٌ ﴾ ﴿١٥﴾ فربنا الكريم جعل علينا حفظة كراماً ، وهو تناسب لطيف . جاء في (الكشاف) في قوله : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ : «تحقيق لما يكذبون به من الجزاء ، يعني : أنكم تكذبون بالجزاء ، والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم ليجازوا بها .

وفي تعظيم الكتبة بالشأن عليهم تعظيم لأمر الجزاء ، وأنه عند الله من جلائل الأمور ، ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه ، ويجازى

به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة ولطف للمؤمنين»^(١).

وجاء في (البحر المحيط): «قال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل: (يكتبون) دل على أنه لا يكتب الجميع ، فيخرج عنه السهو والخطأ وما لا تبعة فيه»^(٢).

وجاء في (التحرير والتنوير): «وابتدئ منها بوصف الحفظ ؛ لأنه الغرض الذي سيق لأجله الكلام الذي هو إثبات الجزاء على جميع الأعمال ، ثم ذكرت بعده صفات ثلاث بها كمال الحفظ والإحصاء ، وفيها تنويه بشأن الملائكة الحافظين»^(٣).

وجاء هنا بجمع المذكر السالم فقال: ﴿لَحَافِظِينَ﴾ وقال في موطن آخر: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام ٦١] بجمع الكثرة ، ذلك أنه زاد على وصف الحفظة في آية الانفطار ، فذكر أنهم كرام كاتبون يعلمون ما تفعلون.

ولاشك أن هذا أقل من الإطلاق ، فكلما ذكر وصف قيد الموصوف فقلّ العدد، فناسب جمع القلة هنا، بخلاف قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ فإنه لم يقيدهم بشيء فناسب جمع الكثرة.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الملائكة الكاتبين إنما هم ملكان لكل شخص.

(١) الكشف ٣/ ٣٢٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٣٧.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٩ - المجلد ١٢.

أما الحفظة فغير محدودين بعدد ؛ إذ ربما كانوا أكثر من ذلك ، يدل على ذلك قوله سبحانه : ﴿ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١١] فذكر أن له معقبات يحفظونه ، وهذا جمع ، فناسب الكثرة من جهة أخرى ، والله أعلم .

* * *

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [١٢] وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ .

* * *

ذكر عاقبة ما يكتبه الكرام الكاتبون وما يترتب عليه من الجزاء ، فليس الغرض مما يكتبه الكرام الكاتبون مجرد العلم الذي لا يفضي إلى غرض أو نتيجة ، وإنما هو لغرض الجزاء .

فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بربه الكريم ويقول : هو أكرمني في الدنيا وسيكرمني في الآخرة ويتجاوز عني ويغفر لي ما أعمل .

فما ذكره من النعيم والجحيم ؛ إنما هما عاقبة ما تكتبه الملائكة الكرام الحفظة .

ثم إن ذكر ذلك مناسب لمبتدأ السورة وخاتمتها ، فإن ذلك إنما يكون في اليوم الآخر الذي ذكر طرفاً من أحداثه في أول السورة بقوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . . . ﴾ .

ومناسب لما ورد بعد ذلك ، وهو قوله : ﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ . . ﴾ إلى آخر السورة .

* * *

﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .

* * *

وهو اليوم الذي كانوا يكذبون به ، والذي ذكره بقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ .

* * *

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ .

* * *

أي : لا يخرجون منها ، وقدم الجار والمجرور للقصر إضافة إلى الفاصلة ، فإنهم غائبون عن غيرها من النعيم ، أما هي فلا يغيبون عنها .
وقيل : إن التعبير يحتمل الإشارة إلى عذاب القبر ، فإنهم يدخلونها يوم الدين ، وما هم بغائبين عنها قبل ذلك في البرزخ .

جاء في (الكشاف) في قوله : ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ : «كقوله : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ . ويجوز أن يراد : يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك ، يعني : في قبورهم»^(١) .

وفي (البحر المحيط) : «وقيل : إنهم مشاهدوها في البرزخ»^(٢) .

* * *

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .

* * *

لما ذكر يوم الدين قبل هذه الآية فقال : ﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ قال ههنا :

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٣٧ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ تعظيماً وتهويلاً لهذا اليوم الذي لا يدرى كنهه «يعني: أن أمر يوم الدين ، بحيث لا تدرك له دراية دار كنهه في الهول والشدة ، وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه»^(١).

ثم كرر السؤال زيادة في التهويل والتعظيم والتوكيد «والتكرار لزيادة التهويل»^(٢).

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ : «تكرير للتهويل تكريراً يؤذن بزيادته ، أي: تجاوز حد الوصف والتعبير ، فهو من التوكيد اللفظي. وقرن هذا بحرف (ثم) الذي شأنه إذا عطف جملة على أخرى أن يفيد التراخي الرتبي... وهي في هذا المقام رتبة العظمة والتهويل، فالتراخي فيها هو الزيادة»^(٣).

وقيل: إن «كل ما في القرآن من قوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ فقد أدراه ، وكل ما فيه من قوله عز وجل: ﴿ وَمَا يَذْرَئُكَ ﴾ فقد طوى عنه»^(٤).

* * *

﴿ يَوْمَ لَا تَعْمَلُكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .

* * *

(١) الكشف ٣/ ٣٢٠.

(٢) الكشف ٣/ ٣٢٠.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٨٤.

(٤) روح المعاني ٣٠/ ٦٦.

«أي: لا يستطيع دفعاً عنها ولا نفعاً لها بوجه، ولا أمر إلا الله وحده»^(١).

جاء في (روح المعاني): «وفي تحقيق قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ لدلالته على أن الكل مسوسون مطيعون مشغولون بحال أنفسهم مقهورون بعبوديتهم لسطوات الربوبية»^(٢).

و(الأمر) يحتمل واحد الأوامر، أي: لا يأمر فيه إلا الله، فهو الملك المطاع، ويحتمل واحد الأمور، أي: الشأن كله الله^(٣).

والتحقيق أنهما كليهما الله سبحانه: الأوامر والشأن. قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فأخر الجار والمجرور (الله).

وفي أكثر من موطن قدم الجار والمجرور على الأمر، وذلك نحو قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

وقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

فنقول: إن كل ما قدم الجار والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ إنما هو مطلق غير مقيد بزمن، فالأمر لله وحده على الإطلاق.

أما في آية الانفطار فقد قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فقيده بذلك اليوم

(١) الكشف ٣/ ٣٢٠.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٦٧.

(٣) انظر: روح المعاني ٣٠/ ٦٧، التحرير والتنوير ٣٠/ ١٨٥.

فقال ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فلو قدم ﴿لِلَّهِ﴾ وقال: (لله الأمر يومئذ) لكان المعنى أن له الأمر حصراً في ذلك اليوم ، ومقتضى هذا أنه في غير ذلك اليوم قد يكون الأمر لذات أخرى ؛ ولذا قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فلم يخصصه بذلك اليوم ، وإنما جعل الأمر له في ذلك اليوم .

أما الأمر على الإطلاق فهو له حصراً في ذلك اليوم وغيره ، وعلى كل حال ، كما ذكره في مواضع أخرى من القرآن الكريم .
فاتضح الفرق .



تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

* * *

سُبِقَتْ هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝ ﴾

[العلق: ١٩] .

ومناسبة هذه السورة لقوله هذا مناسبة ظاهرة .

فإن هذه الليلة هي ليلة السجود والاقتراب من الله ، فمناسبتها لما قبلها ظاهرة .

كما أن مناسبتها لأول السورة التي قبلها ظاهرة أيضاً ، فقد قال في مفتتح السورة التي قبلها: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ «فكأنه قال: اقرأ ما أنزلناه عليك من كلامنا»^(١) .

لقد ذكر في هذه السورة ضمير المنزّل ، وذكر ضمير المنزل ، وذلك في قوله ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ .

ف (نا) ضمير المنزل ، وهو الله .

و (الهاء) ضمير المنزل ، وهو القرآن .

وقد ذكر في السورة التي بعدها ، وهي سورة البينة ، المنزل عليه ، وبين ضمير المنزل وضمير المنزل ، فقال : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ .

فقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ هو المنزل عليه .

وقوله ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ بين ضمير المنزل الذي ذكره في قوله : ﴿ إِنَّا ﴾ و (أنزلنا) .

وقوله : ﴿ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ بين الضمير الذي هو الهاء في ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ .

فبين في هاتين السورتين : المنزل والمنزل عليه ضميراً وإيضاحاً .

فمناسبتها لما بعدها ظاهرة أيضاً .

إن هذه السورة خمس آيات بعدد الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر .

وهن : الليلة الحادية والعشرون ، والثالثة والعشرون ، والخامسة والعشرون ، والسابعة والعشرون ، والتاسعة والعشرون .

وهي مناسبة لطيفة .

وقالوا : وقوله : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ «تسعة أحرف ، وهو مذكور ثلاث

مرات فتكون السابعة والعشرين»^(١).

ونقل عن ابن عباس أن لفظة (هي) «إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر ؛ إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات هذه السورة. انتهى. ولا يصح مثل هذا عن ابن عباس ، وإنما هذا من باب اللغز المنزه عنه كلام الله تعالى»^(٢).

ومثل هذا الاستدلال لا يعتد به ، وإنما يعتد بالنصوص الصحيحة الصريحة عن رسول الله ﷺ .

لقد عظم ربنا هذه الليلة تعظيماً كبيراً:

فقد قال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ فذكر ضمير التعظيم في ﴿ إِنَّا ﴾ مؤكداً بـ (إن) ، وذكره في ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ .

ومن عادات القرآن أنه إذا ذكر التعظيم فلا بد أن يسبقه أو يذكر بعده ما يدل على الواحد ؛ لئلا تكون في الذهن شائبة شرك ، وليعلم أن هذا ضمير التعظيم .

وقد ذكر ذلك في قوله: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ وهو واحد ، فدل على أن هذا ضمير التعظيم .

ومما يدل على التعظيم أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يعني: القرآن. وقد ذكر الضمير ؛ لأن المقصود معلوم وإن لم يجر له ذكر دلالة على جلالة قدره ، وأنه معلوم وإن لم يذكر صراحة ؛ نظير قوله تعالى: ﴿ مَا

(١) تفسير الرازي ١١ / ٢٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٨ / ٤٩٧ .

تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّتِهِ ﴿١٤٥﴾ : ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّتِهِ﴾ [النحل: ١٦١] فالمقصود معلوم ، وهو أن الضمير يعود على الأرض .

وإنه سماها ليلة القدر . ومن معاني ﴿الْقَدْرِ﴾ الشرف والمكانة ، كما تقول : هو جليل القدر ، فلم يقل : (هي ليلة عظيمة القدر ، أو عظيمة المكانة) وإنما هي ليلة القدر ، أي : هي ليلة الشرف ، وهو تعظيم كبير . جاء في (الكشاف) : «عظم القرآن من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن أسند إنزاله إليه ، وجعله مختصاً به دون غيره .

والثاني : أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه .

والثالث : الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه»^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : «وفي التعبير عنه بضمير الغائب مع عدم تقدم ذكره تعظيم له ، أي : تعظيم لما أنه يشعر بأنه لعلو شأنه كأنه حاضر عند كل أحد ، فهو في قوة المذكور .

وكذا في إسناد إنزاله إلى نون العظمة مرتين وتأکید الجملة»^(٢) .

ومن معاني القدر : التقديرات التي يقدرها ربنا سبحانه .

وهي كذلك ، فقد قال ربنا فيها : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

[الدخان : ٤] .

(١) الكشاف ٣/٣٥١ .

(٢) روح المعاني ٣٠/١٨٩ .

جاء في (الكشاف): «ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها ، من قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

وقيل: سميت بذلك لخطرها وشرفها على سائر الليالي»^(١).

وجاء في (البحر المحيط): «لأنه تقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها ، وتدفع إلى الملائكة لتمثله . . .

(وقيل) معناه: ليلة القدر العظيم والشرف وعظم الشأن ، من قولك: رجل له قدر»^(٢).

فهي ليلة الشرف وليلة التقديرات التي يقدرها ربنا.

* * *

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ .

* * *

هذا التعبير يراد به التفخيم والتعظيم ، وذلك نحو قوله: ﴿ الْفَارِغَةُ ۝١ مَا الْفَارِغَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفَارِغَةُ ﴾ أي: أي شيء هو من العظم «يعني: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهاى علو قدرها.

ثم بين ذلك بأنها خير من ألف شهر»^(٣).

جاء في (روح المعاني): وذلك «لما فيه من الدلالة على أن علوها

(١) الكشاف ٣/٣٥١.

(٢) البحر المحيط ٨/٤٩٦.

(٣) الكشاف ٣/٣٥١.

خارج من دائرة دراية الخلق ، لا يعلم ذلك ولا يعلم به إلا علام الغيوب^(١).

وقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ بإظهار اسمها ، ولم يقل: (وما أدراك ما هي) وذلك للزيادة في تعظيمها ، وذلك أن الإظهار أكد من الإضمار كما هو معلوم.

قال تعالى: ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴿ [القارعة: ٩ - ١٠].

وقال: ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿ [الهمزة: ٤ - ٥].

فأضمر في آية القارعة فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴾ ولم يقل: (وما أدراك ما الهاوية).

وأظهر في آية الهمزة فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ للدلالة على ما ذكر من تعظيم النار وشدة وصفها في الهمزة فقال: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقَدَةِ ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿ . ولم يزد في القارعة على قوله ﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ﴾ .

* * *

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

* * *

بين فضلها فذكر أنها خير من ألف شهر ، أي: أفضل من أكثر من ثلاثة وثمانين عاماً.

وقد بين ليلة القدر بعد أن قال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ بالفعل الماضي ،
 قيل: «ما كان في القرآن ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ فقد أعلمه .
 وما قال: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فإنه لم يعلمه»^(١) .

وأظهر ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ في الجواب .

فكرر ذكرها في السؤال والجواب ، فقد قال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ
 الْقَدْرِ ﴾ ، ثم قال: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . ولم يقل: (هي خير
 من ألف شهر) .

وهذا تعظيم آخر ، فإنه لم يرد في القرآن نحو هذا التعبير ، فإنه
 إذا سأل فقال: (وما أدراك ما كذا) فإنه لا يذكر الجواب بإعادة
 اللفظة ، وإنما يجيب مضمراً ما سأل عنه ، وذلك نحو قوله:
 ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَطَمَةُ ﴾ فإنه أجاب بقوله: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ .

ولم يقل: (الحطمة نار الله الموقدة) .

ونحو قوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ فإنه أجاب بقوله: ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ،
 ولم يقل: (الطارق النجم الثاقب) .

وقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ فإنه أجاب بقوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ
 النَّاسُ كَافِرَاشٍ الْمَبْثُوثِ ﴾ ولم يقل: (القارعة يوم يكون الناس) .

فبإعادة ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ في الجواب تعظيم آخر .

جاء في (روح المعاني): «وفي إظهار ليلة القدر في الموضعين من

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٦ ، روح المعاني ٣٠/ ١٨٩ .

تأكيد التعظيم والتفخيم ما لا يخفى»^(١).

والتعظيم الآخر قوله: إنها خير من ألف شهر.

* * *

﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴾ .

* * *

قال: ﴿ نَزَّلَ ﴾ ولم يقل: (تنزل) فحذف إحدى التاءين ؛ لأن هذا التنزل إنما هو في ليلة واحدة في السنة ، فاقطع من الفعل للدلالة على قلة الحدث ، بخلاف قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] .

فإنه قال: (تنزل) بتاءين ، وذلك لأن هذا التنزل مستمر على مدار العام ، في كل ساعة ، بل في كل لحظة .

فلما زاد التنزل زاد في البناء^(٢) .

﴿ وَالرُّوحُ ﴾ قيل: جبريل . وقيل: خلق من خلق الله .

وقال: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ قيل: أي: بأمر ربهم عز وجل ، وقيل: إن ذلك إشارة إلى أنهم يستأذنون ربهم ليأذن لهم بالتنزل ، فقد قيل إنهم:

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٨٩ .

(٢) انظر: (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ١٢ - ١٣ .

«يرغبون في أهل الأرض من المؤمنين ويشتاقون إليهم فيستأذنون فيؤذن لهم»^(١).

﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴾ .

قيل: هي تنزل من أجل كل أمر «تعلق به التقدير في تلك السنة إلى قابل ، وأظهره سبحانه وتعالى لهم ، ف ﴿ مِنْ ﴾ بمعنى اللام التعليلية متعلقة بـ ﴿ نَزَّلُ ﴾ . . .

[وقيل]: إن ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴾ متعلق بقوله تعالى ﴿ سَلَّمَ ﴾ وهو مصدر بمعنى السلامة^(٢).

﴿ سَلَّمَ هِيَ ﴾ .

قيل: السلام هنا بمعنى: التحية ، أي: تسلم الملائكة على المؤمنين ، فلا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة^(٣).

وقيل: السلام: هو السلامة «أي: لا يقدر الله فيها إلا السلامة والخير ، ويقضي في غيرها بلاء وسلامة ، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين»^(٤).

و﴿ سَلَّمَ ﴾ خبر مقدم ، و﴿ هِيَ ﴾ مبتدأ مؤخر ، وقدم الخبر للقصر ،

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٩٦ .

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٩٦ - ١٩٧ .

(٣) الكشف ٣/ ٣٥١ ، البحر المحيط ٨/ ٤٩٧ .

(٤) الكشف ٣/ ٣٥١ .

أي: ما هي إلا سلام ، وإلاخبار بالمصدر عنها للمبالغة^(١).

وقيل: إن تقدير الكلام: هي سلام من كل أمر ، أي: هي سلام من كل أمر مخوف ، وقوله (من كل أمر) متعلق بقوله: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾^(٢).

وقيل: التقدير: (هي حتى مطلع الفجر) والوقوف عند كلمة ﴿سَلَّمَ﴾.

فاحتمل التعبير على هذا:

١ - ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(١) سَلَّمَ هِيَ .

فتم الكلام عند قوله ﴿سَلَّمَ﴾ ، واستأنف الكلام بعد ذلك بقوله: ﴿هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

٢ - ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. وابتدأ الكلام بعد ذلك بقوله: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

٣ - ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

وتم الكلام عند قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ، وابتدأ الكلام بعد ذلك بقوله: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(١) سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ أي: هي سلام من كل أمر حتى مطلع الفجر.

والمعاني كلها مرادة ومحتملة.

* * *

(١) انظر: روح المعاني ٣٠/١٩٧.

(٢) البحر المحيط ٨/٤٩٧.



﴿ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

* * *

قال : ﴿ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ ولم يقل : (حتى آخرها) لئلا يبقى جزء من الليل لا يشمل السلام .

فعم ذلك الليلة كلها إلى مطلع الفجر .

وقال : ﴿ مَطْلَعِ ﴾ ولم يقل : (طلوع) ليشمل ذلك المصدر واسم الزمان فيكون المعنى : سلام هي حتى طلوع الفجر ووقت طلوعه . وقيل : موضع طلوعه أيضاً . جاء في (نظم الدرر) : «ولا يزال ذلك السلام والبركة (حتى) أي : إلى مطلع الفجر ، أي : طلوعه ووقت طلوعه وموضع طلوعه . لا يكون فيها شر كما في غير ليلتها . . . وذلك سر قراءة الكسائي بالكسر ، والله أعلم^(١) .

واختير التعبير بـ (حتى) دون (إلى) ليفهم أن لما بعدها حكم ما قبلها فيكون المطلع في حكم الليلة^(٢) .

* * *

(١) انظر : النشر في القراءات العشر ٢ / ٤٠٣ .

(٢) نظم الدرر ٨ / ٢٩٤ - ٤٩٣ .

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرُ ١ ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٣ .

* * *

وقعت سورة العصر بين خسرين :

الخسر الأول : ما ذكره في سورة التكاثر قبلها ، فإن الذي ألهاه التكاثر حتى زار المقابر إنما هو في خسر .

والخسر الآخر : ما ذكره في سورة الهمزة بعدها ، فإن الهمزة الذي جمع مالا وعدده إنما هو في خسر .

والخسر الأول الذي ذكره في سورة التكاثر هو رؤية الجحيم ، وذلك قوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ١ ﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٢ .

والخسر الذي ذكره في سورة الهمزة إنما هو نبذه في الحطمة ، وذلك قوله : ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ١ ﴾ .

ثم إن هذا هو الترتيب الطبيعي بحسب السبق :

فإن رؤية الجحيم قبل الدخول فيه .

ومن الطريف أيضاً ورود سورة التكاثر بعدما يكون الناس كالفراش
المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش .

فإن ذلك قبل رؤية الجحيم .

جاء في (روح المعاني) أن «فيها إشارة إلى حال من لم يلهه التكاثر ؛
ولذا وضعت بعد سورتها»^(١) .

﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ .

أقسم ربنا بالعصر ، ومما قيل في العصر أنه الدهر ، والدهر خير
شاهد على ما أقسم عليه من أن الإنسان في خسر ، إلا من استثناهم ربنا .
جاء في (تفسير ابن كثير) : «العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم
من خير وشر»^(٢) .

وقيل : إن المقصود بالعصر صلاة العصر ، وقيل : هو زمان حياته
صلى الله عليه وسلم وما بعده إلى يوم القيامة ، ومقداره بالنسبة إلى ما
مضى من الزمان مقدار وقت العصر من النهار .

وفي الحديث : إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم كما بين صلاة
العصر إلى غروب الشمس^(٣) .

(١) روح المعاني ٢٢٧/٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٤٧/٤ .

(٣) انظر : روح المعاني ٢٢٧/٣٠ .

وقيل: إن العصر «عصر الدنيا قد دنت القيامة وأنت بعد لم تستعد»^(١).

وقد أقسم ربنا - هنا - بالعصر دون غيره من الأوقات كالفجر أو المغرب أو الضحى أو غير ذلك من الأوقات ، ذلك لأن ما أقسم عليه من الخسر ينبغي أن يكون قد مرت مرحلة كافية تدل على الاستشهاد بها عليه ، والعصر هو أدل الأوقات على ما أقسم عليه. فإن مقداره في الدنيا بالنسبة إلى ما مضى من الزمان ، مقدار وقت العصر من النهار .

وإن ما مر من الزمان قد استوفى جميع الأمم قبل الرسول الخاتم وجميع الرسالات ، وفيها عبرة كافية ودلالة بينة على ما أقسم عليه . أما غيره من الأوقات فليس فيها ما يدل على ما أقسم عليه كدلالة العصر .

فالفجر هو أول النهار والإنسان لم يعمل بعد ليتبين خسره أو عدمه .

والضحى نحو ذلك ، فإنه لم تمر عليه مرحلة كافية للاستدلال .

أما المغرب فهو وقت غروب الدنيا فلا فائدة من الاستدلال ؛ إذ الحياة قد انقضت وليس ذلك وقت اعتبار .

ومن الملاحظ أنه إذا ذكر الأمم بعد القسم بالأوقات ناسب بين السبق في الوقت وذكر الأمم .

فإنه لما أقسم بالفجر ذكر عاداً فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .

وهي من أوائل الأقوام ، وهم بعد نوح .

ولما أقسم بالشمس وضحاها ذكر ثمود فقال : ﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا
وهي بعد عاد .

فناسب بين ذكر القوم وما أقسم به .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .

أي : إن الإنسان ساقط في الخسر ، يحيط به من كل جانب ، إلا من
استثناهم ربنا .

وقال (في خسر) ولم يقل (خاسر) للدلالة على عظم الخسارة التي
تحيط به .

جاء في (تفسير الرازي) : «واعلم أن الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن
تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسر .

أحدها : قوله : ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ يفيد أنه كالمغمور في الخسران ، وأنه
أحاط به من كل جانب . وثانيها : كلمة (إن) ، وثالثها : حرف اللام»^(١) .

وقد نكر (الخسر) ولم يعرفه ؛ ذلك لإطلاق الخسر ، فقد يكون كبيراً
أو صغيراً ، عظيماً أو قليلاً ؛ بحسب عمله وتواصيه بالحق والصبر .

لقد ورد في القرآن الكريم لفظ : (الخسر) و(الخسار) و(الخسران)
وقد ذكرنا في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) دلالة كل منها في
الاستعمال القرآني .

وقد ذكرنا أن القرآن استعمل (الخسر) لعموم الخسارة ، سواء كانت قليلة أم كثيرة .

واستعمل (الخسار) للزيادة في الخسارة ، كقوله : ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

واستعمل (الخسران) لأكبر الخسران وأعظمه ، ولم يستعمله للخسارة القليلة ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ ^(١) [الزمر : ١٥] .

* * *

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

* * *

قوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ «بيان لتكميلهم لأنفسهم ، وقوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ بيان لتكميلهم لغيرهم ، أي : وصى بعضهم بعضاً بالأمر الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره ، وهو الخير كله في الدنيا والآخرة» ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ «دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه ، فلذلك قرن به التواصي» ^(٣) .

(١) من أسرار البيان القرآن ١٢ - ١٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥٥ / ٧ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨٢ / ٨ .

وذكر التواصي بالصبر بعد التواصي بالحق ؛ لأن التواصي بالحق والدعوة إليه تثقل على النفس وعلى الآخرين ، وقد يتعرض المتواصي بالحق إلى الأذى ، فذكر التواصي بالصبر .

وكرر فعل التواصي وحرف الجر في كل منهما للتأكيد عليه .

فقد كان يمكن أن يقول : (وتواصوا بالحق والصبر) أو : (وتواصوا بالحق وبالصبر) وهو أكد لتكرار حرف الجر ، لكنه قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ فأعاد الفعل وحرف الجر ، وهو في غاية الاهتمام والتأكيد .

والتواصي بالصبر عام .

فقد يكون صبراً عن المعاصي .

وصبراً على الطاعات ومشاقها .

وعلى ما يبتلي الله به عباده من المصائب .

والصبر على آثار الدعوة إلى الله والتواصي بالحق .

جاء في (الكشاف) : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبلو الله به عباده^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : «وتواصوا بالصبر عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية .

وعلى الطاعات التي يشق عليها أداؤها .

وعلى ما يبتلي الله تعالى به عباده من المصائب .

والصبر المذكور داخل في الحق ، وذكر بعده مع إعادة الجار والفعل المتعلق هو به ؛ لإبراز كمال العناية به^(١) .

قد تقول : لم يذكر ربنا التواصي بالحق والصبر في مواطن أخرى واكتفى بالإيمان والعمل الصالح ، فقال ربنا في سورة التين : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿ .

فما الفرق؟

فنقول : إن آية العصر في بيان الخسر الذي يصيب الإنسان .

وسورة التين فيما ينجي من دركات النار ، فبين أن الإيمان والعمل الصالح يمنعه من الرد إلى أسفل سافلين ، ولكن لا يمنعه من الخسر الذي يفوته فيما لو تواصى بالحق وبالصبر .

فإن من ترك شيئاً من ذلك خسر شيئاً من الأجر الذي كان يربحه فيما لو فعله .

(١) روح المعاني ٢٢٩/٣٠ وانظر : تفسير أبي السعود ٥٥/٧ .

أسئلة بيانية

١ - قال تعالى في سورة البقرة [٢٢٨]: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ .

وقال في سورة البقرة [٢٣٢]: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ .

سؤال:

لماذا قال في الآية ٢٢٨: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ .

وقال في الآية ٢٣٢: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ .

فاستعمل البعولة في الآية الأولى ، واستعمل الأزواج في الآية الأخرى؟

الجواب:

البعل: هو رب الشيء ومالكه ، ومنه: بعل الدار^(١) ، وسمي زوج المرأة بعلاً ؛ لأنه سيدها والقائم على أمرها ، وفيه معنى الاستعلاء .

(١) تاج العروس (بعل) ، المخصص لابن سيده ٣٠٤ / ١ .

فقال في الآية ٢٢٨ : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرِزْقِهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ فجعل الأمر بيدهم ، وجعل الحق لهم إن أرادوا ذلك ، فاستعمل كلمة (البعولة) .

وأما في الآية الأخرى فإنه لم يجعل الأمر بيد الأزواج ، وإنما جعل الأمر بيد ولي المرأة فقال : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ والخطاب إنما هو لأولياء الأمور .

فلما لم يجعل الأمر بيد الزوج لم يستعمل (البعولة) ؛ لأنه ليس بيده الأمر ، ولما جعل الأمر بيد الأزواج استعمل البعولة ؛ لأن فيه معنى الاستعلاء .

ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ [النساء : ١٢٨] .

فإنه لما كان هو المستعلي بنشوزه وإعراضه استعمل البعولة .
فاتضح ما قلناه .

٢ - قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ .

فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ .

وقال في سورة مريم : ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ [مريم : ٦١] .

فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ .

وقال في سورة الزمر: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوَّا رَحْمَتَهُمْ هُمْ عُرِفُوا بِمَنْ فَوْقَهَا عُرِفُوا مُبَلِّغَةً
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].
فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

وقال في سورة الأحقاف: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ
عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].
فقال: ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ﴾.

سؤال:

قال سبحانه في موضع: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾.
وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾.
وقال في موضع ثالث: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.
وقال في موضع رابع: ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ﴾.
فلم الاختلاف في التعقيب على الموعد؟

الجواب:

إن كل تعبير مناسب للسياق الذي وردت فيه الآية:

١ - فقد ذكر قبل آية النساء ما يعد الشيطان أوليائه من الغرور والخداع والإطماع بالباطل فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (١١٩) يَعدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُولَئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَحِجُّونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

ثم ذكر بعدها ما يعد الله المؤمنين فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّلَاحَاتِ سَكُنُوا خِلَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿[النساء: ١٢٢] .

فهذا وعد الله ، وذاك وعد الشيطان ، فذكر أن وعد الله حق ، وليس كما يعد الشيطان أوليائه من الغرور والخداع والإطماع بالباطل ، فإن معنى (غره) خدعه وأطمعه بالباطل^(١) .

فوعد الله حق ، ووعد الشيطان غرور .

٢ - وأما آية مريم ، فقد قال فيها : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدٌ مَائِيًّا ﴾ ذلك أنه ذكر وعد الرحمن عباده بالغيب فقال : ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدٌ مَائِيًّا ﴾ [مريم: ٦١] .

والغيب مجهول يرتاب به الكافرون ، أيأتي أم لا ؟

فقال : إنه مأتي يأتكم وتأتونه .

٣ - وقال في آية الزمر : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴾ .

ذلك أنه ذكر خلف الإنسان لوعده في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر: ٨] .

فقد وعد الإنسان ربه بالإجابة إليه عند مسه بالضر ، فلما كشف عنه ضره وخوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه وأخلف وعده .

(١) انظر : القاموس المحيط (غرر) ، لسان العرب (غرر) .

فقال في الآية العشرين: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا رَبَّهُمْ هُمُ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَّيْنَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ .

فقال: إن الله لا يخلف وعده تعريضاً بما وعد الإنسان ربه فأخلف . وهذا من لطيف المناسبة .

٤ - وأما قوله سبحانه في الأحقاف: ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ .

فهو مناسب لسياقه أيضاً .

فإن الآية وردت في الصالحين من الأبناء ، فقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦] .

فقال: إن ذلك وعد الصديق .

وورد بعدها ذكر الأبناء الكافرين المكذبين بيوم الدين ، فقال فيهم: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمْ أَنِ اتَّعَدَانِي أَنِ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبَلَكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧] .

فهؤلاء مكذبون بما كان يعدهم آبائهم بالبعث ويقولون: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

فهؤلاء يقولون: إن هذا الوعد كذب ، وما هو إلا أساطير الأولين . فقال ربنا سبحانه: إن هذا الوعد وعد الصديق الذي كانوا يوعدون . فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

٣ - ورد في القرآن الكريم في الجزاء عن الأعمال أنه سبحانه قال مرة: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] .

وقال مرة أخرى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩ ، ٧٧] ، [الإسراء: ٧١] .

وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠] .

فما الفرق؟ ولم ذاك؟

الجواب:

إن كل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه ، وإليك إيضاح ذلك :

أ - قال تعالى في سورة النساء ١٢٤ : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ .

فقال: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ذلك أن الآية - كما هو واضح - في المؤمنين الذين يعملون الصالحات .

والمعنى : أنه لا ينقص من أجورهم مقدار ما يملأ النقيير ، والنقيير : نقرة في أعلى النواة ، فإن هؤلاء يعملون الصالحات ، فلا يذهب من هذه الأعمال الصالحة ما يملأ النقيير .

وإذا ملئ منها النقيير فقد ذهب من أعمالهم مقدار ذلك ، فذكر أنهم لا يظلمون نقيراً ، أي : لا ينقص من أعمالهم ما يملأ النقيير ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] .

أي: لا يؤتون الناس من الأموال ما يملأ النكير؛ خشية أن تنقص أموالهم مقدار ذلك.

فما يملأ النكير إنما هو ما يؤخذ من الأعمال أو الأموال فتنقص.

ب- وقال تعالى في سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلَىٰ اللَّهُ يَزِكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً ﴿ [النساء: ٤٩ - ٥٠] .

فقال: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ .

والآية في المشركين والكافرين ، وقبلها: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ .

أي: لا يزداد على ذنوبهم مقدار فتيل.

والفتيل: هو الخيط في شق النواة.

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْفِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْفِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧] .

وهي نحو الآية الأولى.

قد تقول: لكنه قال في سورة الإسراء: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ .

فقال فيمن أوتي كتابه بيمينه: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ .

فما الفرق؟

والجواب: أن هذه الآية عامة ، فقد قال: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ﴾ .

وهذه عامة في الكافرين والمؤمنين ، وعدم الظلم واقع على الجميع ، فلا يزيد في جزاء الكافر مقدار فتيل .
ولا ينقص من حسنات المؤمن مقدار فتيل .

ج - وقال في سورة مريم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥٩ - ٦٠] .

فذكر في هذه الآية التوبة والإيمان والعمل الصالح ، وهذا أعم من مجرد العمل ، فذكر أنهم لا يظلمون شيئاً .

و(الشيء) أعم من النقيض والفتيل .

فلما ذكر ما هو أعم وأشمل من العمل ، وهو: التوبة والإيمان والعمل ، ذكر الأعم والأشمل ، وهو (الشيء) فقال: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾
فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه .

٤ - قال سبحانه في سورة الأنعام: .

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا أَبَدُوا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَقًّا إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] .

وقال في سورة محمد:

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ .

فقال في الآيتين ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ ﴾ بإفراد الفعل (يستمع).

وقال في يونس :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

فقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ فجاء بواو الجماعة .

فما السبب؟

الجواب:

المستمعون في آيتي الأنعام ومحمد أقل ممن هم في يونس ؛ ذلك أنه ذكر في آية الأنعام أنهم إذا جاؤوه يجادلونه ، فهم مجموعة ليست بالكثيرة ، وهم الذين يجيئون يجادلونه .

وذكر في آية محمد أنهم إذا خرجوا من عنده قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفًا؟ .

فهم كانوا عنده وخرجوا .

وهي نظيرة آية الأنعام ، فالأولى فيمن جاءه ، والأخرى فيمن خرج من عنده .

أما آية يونس فقد أطلق المستمعين فيها ، فهي ليست مختصة بمن جاءه أو خرج من عنده ، وإنما قال : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ وهي عامة .

فجاء بواو الجماعة التي هي أكثر فقال : ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ .

٥ - قال سبحانه في سورة الحجر في قصة لوط :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ .

سؤال:

لماذا قال أولاً : ﴿ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ .

باستعمال الفعل (جاء) ، وقال بعدها : ﴿ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ ﴾ .

فاستعمل الفعل (أتى) مع أن الفعلين مترادفان؟

الجواب:

قيل : إن ذلك قد يكون من باب التوكيد بالمرادف ، كقوله تعالى : ﴿ سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ وقوله : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ .

وقيل : إن ذلك للتفنن لدفع التكرار . جاء في (التحرير والتنوير) : «إعادة فعل «أتيناك» بعد واو العطف ، مع أن فعل «أتيناك» مرادف لفعل (جئناك) دون أن يقول : «وبالحق» ، يحتمل أن يكون للتأكيد اللفظي بالمرادف ، والتعبير في أحد الفعلين بمادة المجيء ، وفي الفعل الآخر بمادة الإتيان لمجرد التفنن ، لدفع تكرار الفعل الواحد»^(١) .

والذي يبدو أن الاختلاف في التعبير بين الفعلين إنما هو لغرض لطيف ، فإن الإتيان يستعمله القرآن للمجيء بسهولة ، وأن المجيء قد

يستعمله لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى) ^(١).

فاستعمل (أتيناك) لما هو أيسر مما جاء في قوله (جئناك) ، ذلك أنه قال : ﴿ بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ وهو العذاب الذي كانوا يشكون في صحته ، ويجادلون فيه ، كما أخبر عنهم ربنا سبحانه في موطن آخر فقال فيهم : ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] .

وأما المجيء الثاني فإنما هو مجيء بنجاته ونجاة أهله كما قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ .

فالمجيء الأول بعذاب قومه .

والمجيء الآخر بنجاته ونجاة أهله .

ولاشك أن مجيء العذاب أعسر من المجيء بالنجاة فخالف بينهما ، إضافة إلى ما ذكر من التوكيد ، والله أعلم .

٦ - قال تعالى في سورة الكهف :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۖ ﴾ .

وقال في سورة طه :

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن ٦ ، ١٠٢ ، لمسات بيانية ٩٧ وما بعدها ، من أسرار البيان القرآني ٤٠ وما بعدها .

﴿ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴾ (٦٦) قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَّاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا .

سؤال:

قال في آية الكهف: ﴿ إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ فقدّم الظرف ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ على الأمر.

وقال في سورة طه: ﴿ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ فقدّم الأمر على الظرف.

فلم ذاك؟

الجواب:

إن الأمر في آية طه إنما هو في أمر موسى وفرعون ، والأمر هو مغالبة موسى ، وقد تناظروا وتشاوروا للنظر في ذلك ، فقد جمع فرعون كيده للنظر في هذا الأمر المهم ، قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ (٦٦) ، وقال على لسان فرعون: ﴿ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ (٦٦) .

وهذا الأمر مهم ؛ ولذا قال: ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴾ أي: بالغوا في إخفاء تناجيهم عن موسى وأخيه ، فقدّم الأمر ؛ لأنه هو المهم.

وأما ما في الكهف فإن الأمر ليس بهذه الأهمية ، فإنه أمر الفتية وأمر القوم واحد ، فكلهم مؤمنون ، وليس ثمة اختلاف في الأمر ، وإنما الاختلاف فيما يفعلون لهم بعد أن ماتوا ، فقال بعضهم: ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا ﴾ .

وقال الذين غلبوا على أمرهم : اتخذوا عليهم مسجداً .

وهذا الأمر بعد موت الفتية .

فالفرق كبير بين الأمرين ؛ ولذا كثر الكلام في أمر موسى وفرعون وأسروه ؛ بخلاف ما في الكهف ، فناسب تقديم الأمر في آية طه على الظرف دون آية الكهف .

والله أعلم .

٧ - قال سبحانه في سورة الكهف : ﴿ وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿ ١٢٧ ﴾ .

فرسمت كلمة (شيء) بالالف بعد الشين في هذا الموضع ، ولم ترسم نحو هذا الرسم في موضع آخر من القرآن الكريم ، بل رسمت كلها من دون ألف على النحو المعروف (شيء) .

فلم ذاك ؟

الجواب :

من المعلوم أن هذا متعلق برسم المصحف ، وخط المصحف لا يقاس عليه كما هو معلوم .

إلا أنه يمكن أن نقول : إن هذا الشيء المذكور بالآية ليس مقصوداً فعله في وقت التكلم ، بل هو مقصود فعله بعد يوم من وقت التكلم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ .

فهناك فاصل زمني بينهما .

فلما كان الأمر كذلك رسمت الكلمة بفواصل بين حروفها ، إشارة إلى الفاصل الزمني ، والله أعلم .

٨ - قال تعالى في سورة طه : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ ﴿١٥﴾ .

سؤال:

١ - قال أولاً : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ .

وقال بعدها : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾ بذكر نون الوقاية .

٢ - وقال في الآية الأولى : ﴿ أَنَا رَبُّكَ ﴾ بذكر الرب .

وقال في الآية الأخرى ﴿ أَنَا اللَّهُ ﴾ بذكر اسمه العلم .

فلم ذاك؟

الجواب:

أما ذكر نون الوقاية في ﴿ إِنِّي ﴾ وعدم ذكرها في ﴿ إِنِّي ﴾ فذلك لأن ﴿ إِنِّي ﴾ أكد من ﴿ إِنِّي ﴾ وذلك لذكر نون زيادة على ما في ﴿ إِنِّي ﴾ والنون قد تأتي للتوكيد ، وقد بينا ذلك في كتابنا (معاني النحو)^(١) .

ولاشك أن المقام في الآية الثانية يستدعي توكيداً أكثر مما في الآية الأولى ؛ لما ذكر من مقام التوحيد والتبليغ بالرسالة ، والأمر

(١) انظر: (معاني النحو) ج ١ / ٣٣٣ في باب (إن وأخواتها) .

بالعبادة ، وقدم ذلك بقوله : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ مما يدل على أهمية ما سيوحى إليه .

وأما اختيار الرب في الآية الأولى فإن ذلك لتسكين روعه ، فإن الرب هو المربي والقيم على الأمر ، وذلك يدل على الرعاية «فإن من شأن الرب الرفق بمربوبه»^(١) .

ولعل ذلك أيضاً استجابة لترجيئه حين خرج فاراً من مصر إلى مدين قائلاً : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [الفصل: ٢٢] فذكر ربه وأضافه إلى نفسه : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي ﴾ ، فقال ربّه : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ فقد ذكر اسمه العلم الدال على ذاته سبحانه ، وذلك في مقام التوحيد والأمر بالعبادة ، فإن كلمة التوحيد إنما هي (لا إله إلا الله) بذكر اسمه العلم ، فناسب ذلك مقام التوحيد .

وفي مقام العبادة ناسب ذكر اسمه العلم أيضاً ، فإنه كما قيل إن كلمة (الله) أصلها (الإله) ومعناها : المعبود .

ثم إنه جمع بين كلمتي الرب والله ؛ ليدل على أن الرب هو الله سبحانه وليس غيره . فقد قال فرعون لقومه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] فأعلمه أن ربه الله وليس ذاتاً أخرى .

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٩٦ .

٩ - قال تعالى في سورة طه: ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ﴿١٢﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ .

وقال بعدها: ﴿ فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ .

سؤال:

قال في الآية الأولى: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا ﴾ فذكر أن القول له .
ولم يذكر (له) في الآية الأخرى ، وإنما قال: ﴿ فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ ، فلم يقل: (فقولاً له) .

فلم ذاك؟

الجواب:

إنه قال في الآية الأولى: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا ﴾ فإنه إذا لان ؛ لان ملؤه وقومه ، فيكونون أسمع له .

وأما الآية الأخرى ، وهو قوله: ﴿ فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ فإنه لم يذكر (له) ذلك أنه في مقام التبليغ العام له ولملئه وقومه ، وليس له خاصة ، فإنهما أرسلوا إلى فرعون وملئه وقومه كما قال ربنا سبحانه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [يونس: ٧٥] .

وقال: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿ [الشعراء: ١٠ - ١١] .

وقال: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [النمل: ١٢] .

وقد آمن من آمن من قوم فرعون وملئه ، فقد آمن شخص من ملا

فرعون ، قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر : ٢٨] .

فلما كان المقام مقام التبليغ العام ، وليس خاصاً بفرعون ، أطلق القول ولم يقيده بفرعون ، فقال : ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ بخلاف الآية الأولى .

١٠ - قال تعالى في سورة الحج : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

وقال في سورة سبأ : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ .

سؤال:

كُتِبَ الفعل ﴿ سَعَوْا ﴾ في آية الحج بالألف بعد واو الجماعة .
ولم تكتب الألف بعد واو الجماعة في آية سبأ في كلمة ﴿ سَعَوْ ﴾ .
فلماذا؟

الجواب:

إن هذا من رسم المصحف ، ورسم المصحف لا يقاس عليه كما هو معلوم .

ومع ذلك فكأن هذا الاختلاف في الرسم إشارة إلى أمر بياني .
فإن آية الحج وقعت بعد ذكر أقوام كثيرة كافرة معاجزة ، فقد ذكر قبل الآية قوم نوح وعاداً وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين ،

وذكر تكذيب موسى ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾ (١٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ (١٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ ﴾ .

ثم ذكر أن هناك قرى كثيرة أهلكها ربنا بظلمها فقال : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴾ (١٥) .

وأما آية سبأ فهي في سياق المكذبين بالساعة من الكافرين في زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر غيرهم من الأقوام ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٣) .

فالكلام في المكذبين بالساعة في زمن الرسول بدليل قوله سبحانه : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ فأمر رسوله أن يقول لهم : ﴿ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ .

فلما كانت الأقوام في سياق آية الحج كثيرة متعاقبة ؛ رسمت كلمة ﴿ سَعَوْا ﴾ بالألف إشارة إلى كثرة الساعين المعاجزين .

ولما كانت آية سبأ في جماعة واحدة لم ترسم الألف .

فالزيادة في رسم الكلمة كأنها إشارة إلى كثرة الساعين المعاجزين .

فناسب بين عدد حروف الكلمة وعدد المعاجزين ، والله أعلم .

١١ - قال تعالى في سورة النور (٣١) : ﴿ وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

لِبُعُولَتِهِمْ أَوْءَابَائِهِمْ أَوْءَابَاءَ بُعُولَتِهِمْ . . . ﴿

سؤال:

لماذا استعمل (البعولة) في هذه الآية دون الأزواج؟

الجواب:

إن من معاني التبعل في اللغة التزين وحسن العشرة ، يقال : «تبعلت المرأة : أطاعت بعلمها ، وتبعلت له : تزينت .

وامرأة حسنة التبعل ؛ إذا كانت مطاوعة لزوجها محبة له .

والتبعل : حسن العشرة»^(١) .

فلما كان المقام مقام التزين ناسب ذكر البعولة ؛ لأن من معنى التبعل : التزين كما ذكرنا .

فناسب ذلك المقام الذي ورد فيه .

١٢ - قال سبحانه : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] .

وقال : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٠] .

بذكر تاء التأنيث مع الفعل (كذب) مع أنه مسند إلى (قوم) .

وقال : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ [الأنعام : ٦٦] .

فلم يذكر تاء التأنيث مع الفعل (كذب) مع أنه مسند إلى (قوم) أيضاً .
فما السبب؟

(١) لسان العرب (بعل) .

الجواب:

إن التأنيث يفيد التكثير كما مر بنا في أكثر من مناسبة .
 وإن الأكثرين من قوم نوح وقوم لوط كذبوا المرسلين .
 في حين أن الأكثرين من قوم الرسول آمنوا وأسلموا وانتشر الإسلام
 بهم .

فناسب ذكر التاء مع قوم نوح ولوط دون قوم الرسول .

١٣ - قال سبحانه في سورة ص: ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ
 الْوَهَّابِ ﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْتَفُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ .

وقال في سورة الطور: ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ أَمْ
 لَهُمْ سُلُوكٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ .

سؤال:

ما الفرق بين آية ص ٩ وآية الطور ٣٧؟

الجواب:

إن ما ورد في سورة الطور أعم مما ورد في ص من أوجه عدة منها:

١ - أنه قال في آية ص: ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ .

وقال في الطور: ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ .

وآية الطور أعم ؛ لأنها تشمل خزائن الرحمة وغيرها .

ولما قال: ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ في آية ص ، ناسب ذكر الرحمة .

وقد اقترن ذكر الهبة مع الرحمة في أكثر من موضع في القرآن الكريم ،

قال تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٠] .

وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ [ص : ٤٣] .

وناسب ذكر ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ قوله في الآية بعدها : ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ .

فإن الذي يملك هو الذي يهب ، وأما الذي لا يملك فماذا يهب ؟ وربنا هو الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ، وليس المذكورون .

٢ - قال في آية ص : ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ .

وقال في آية الطور : ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ .

وما في الطور أعم ، فالمصيطر هو العزيز وزيادة ، فناسب العموم العموم .

٣ - قال في (ص) : ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ .

وقال في الطور : ﴿ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ .

والسُّلَّم : هو المرقاة والدرج ، وهو : « ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ، ثم جعل اسماً لكل ما يتوصل به إلى شيء

رفيع ، قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾^(١) .

وقال الزجاج : «سمي به لأنه يسلك إلى حيث تريد»^(٢) .

ولما قال : ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ : دل ذلك على قربهم مما يريدون ، فهو آخر الارتقاء .

فكان ما في الطور أتم ؛ فإنه لم يذكر في (ص) مكاناً يرتقون إليه .

فإن الحدث يحصل ولو ارتقوا إلى أي مكان ، وإن لم يصلوا إلى مكان الاستماع ، فهو ارتقاء في الأسباب على أية حال .

فذكر في الطور ما هو أتم ، وهو ذكر الغرض من الارتقاء .

٤ - ومن طريف ما ورد في سياق كل من الآيتين أنه قال قبل آية (ص) :

﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾^(٨) .

وقال قبل آية الطور : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ
إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ .

فذكر في (ص) أنهم في شك من الذكر .

وقال في الطور : إنهم يقولون تقوله ، بل ذكر أنهم لا يؤمنون ، وهو أبعد من الشك ، فهو الكفر وعدم الإيمان قطعاً .

فذكر في الطور ما هو أتم وأعم .

(١) مفردات الراغب (سلم) .

(٢) تاج العروس (سلم) .

فقد قال في الطور: ﴿ خَزَّائِنُ رَبِّكَ ﴾ وهي خزائن الرحمة وزيادة.
وقال في (الطور): ﴿ أَمْ أَمْ هُمْ الْمُصْطَفُونَ ﴾ والمصيطر: هو العزيز
وزيادة.

وقال في الطور: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَعِصُونَ فِيهِ ﴾ وهو الارتقاء في الأسباب
وزيادة ، وهو أتم.

وقال في الطور ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو الشك وزيادة ، بل هو أبعد منه .
ومن طريف ذلك أيضاً أنه قال بعد هذه الآيات في ص: ﴿ أَصْبِرْ عَلَى مَا
يَقُولُونَ ﴾ [الآية: ١٧] .

وقال بعد الآيات في الطور: ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:
٤٨] .

وما في الطور أعم ، فإنه في (ص) أمره بالصبر على ما يقولون .

وأمره في الطور بالصبر لحكم ربه على العموم .

فكان الصبر في الطور أعم وأتم .

وهذه من المناسبات البديعة .

١٤ - في سورة ص ذكر صفة العبد لمن ورد في السورة من الأنبياء ،
فقال:

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ [ص: ١٧] .

وقال: ﴿ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠] .

وقال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ [ص: ٤١] .

وقال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥] .

إلا إسماعيل واليسع وذا الكفل فإنه قال فيهم: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ ولم يقل فيهم: (واذكر عبادنا) كما قال فيمن سواهم .
فلم ذاك؟

الجواب: من وجهين:

الوجه الأول: إن كل الذين ذكر صفة العبودية فيهم إنما تكلم عليهم وذكر أموراً تتعلق بهم .

فذكر عن نبي الله داود عشر آيات .

وذكر عن نبي الله سليمان إحدى عشرة آية .

وذكر عن نبي الله أيوب أربع آيات .

وذكر عن أنبياء الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ثلاث آيات .

وأما إسماعيل ومن بعده فذكرهم في آية واحدة .

فناسب التفصيلُ التفصيلَ ، وناسب الإيجازُ الإيجازَ ، فلم يذكر صفة العبودية .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أن كل من ذكر له صفة العبد ذكر شيئاً من تفضله سبحانه عليه وما وهب له من الخير .

فقد ذكر في داود تسخير الجبال معه والطير ، وأنه شد الله ملكه ،

وآتاه الحكمة وفصل الخطاب ، فقال فيه : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ ۝٢٠ 》 .

وقال في سليمان : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ۝٤٠ 》 .

وقال في أيوب : ﴿ أَرْكَضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَاسٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤١ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ۝٤٢ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا بِهِ ، وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٤٣ 》 .

وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝٤٤ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۝٤٥ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۝٤٦ 》 .

إلا إسماعيل واليسع وذا الكفل فلم يذكر هنا تفضلاً عليهم ، وإنما قال فيهم : ﴿ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ۝٤٧ 》 .

ولم يقل : إنه أخلصهم ، ولا إنهم عنده من المصطفين الأخيار ، أي : اصطفاهم ربهم ، كما قال فيمن قبلهم .

فناسب ذكر صفة العبد لمن ذكر تفضله عليهم ، والله أعلم .

١٥ - قال سبحانه وتعالى في سورة الزمر :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ۝٨ 》 [الآية : ٨] .

وقال في السورة نفسها:

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٤٩] .

سؤال:

قال سبحانه في الآية الأولى : ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ . . . ﴾

بضمير الإفراد .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا ﴾

بضمير الجمع .

فلم ذاك؟

الجواب:

إن الآية الأولى في مقام التوحيد ونفي الشرك ، فقد قال في الآية :
﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ .

فناسب ذلك المجيء بالإفراد فقال : ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ .

حتى إن سياق الآية في نفي الشرك ابتداء من أول السورة ، فقد قال
في أول السورة : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢) .

وقال بعدها : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١) .

فذكر أنه الواحد القهار .

فناسب ذكر الأفراد من كل جهة .

وأما الآية الأخرى فهي في ادعاء الإنسان المذكور العلم .

فقد قال في الآية : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .

وقد نفى ربنا في الآية العلم عن أكثرهم فيها : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فنفى العلم عن أكثرهم ؛ مما يدل على أن هناك من يعلم .

فلم يقتض ذلك الأفراد كما اقتضت الآية الأولى .

فإن هناك من خلق الله من يعلم ، وإن لم يكن ذلك كعلم الله ، فقد ذكر ربنا قبل الآية أنه سبحانه عالم الغيب والشهادة (٤٦) .

ولكن ليس لله ند على الإطلاق .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

١٦ - قال سبحانه في سورة المجادلة :

﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٢) .

وقال في سورة البينة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ .

* * *

سؤال:

قال سبحانه في سورة المجادلة: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

وقال في سورة البينة: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

فذكر في (البينة) أن ذلك (جزاؤهم) ولم يقل مثل ذلك في آية المجادلة.

وقال في سورة البينة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ ولم يذكر الأبد في آية المجادلة.

فلم ذاك؟

الجواب:

الجزاء إنما هو للعمل ، ولم يذكر عملاً في آية المجادلة ، بل ذكر أنهم لا يوادون من حادّ الله ورسوله .

في حين قال في آية البينة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

فذكر الإيمان والعمل الصالح فقال (جزاؤهم) ، والجزاء إنما يكون على العمل .

قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحریم: ١٧].

وقال: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠].

وقال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فناسب ذكر الجزاء في آية البينة.

ثم إنه زاد في (البينة) في الصفات والعمل ، فذكر الإيمان والعمل الصالح ، وذكر أنهم يخشون ربهم فقال: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

وذكر أنهم خير البرية.

فلما زاد في الصفات والعمل زاد في الجزاء.

فذكر أن جزاءهم جنات عدن ، ولم يذكر في آية المجادلة أنها جنات عدن ، بل ذكر أنه يدخلهم جنات.

وقال: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ فذكر الأبد ، ولم يذكر الأبد في آية المجادلة.

فناسب كل تعبير موضعه.

المصادر

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي - المطبعة العثمانية ١٣٠٥ هـ.
- البحر المحيط لأبي حيان ط ١ سنة ١٣٢٨ هـ - مطبعة السعادة بمصر .
- البرهان في متشابه القرآن - محمود بن حمزة الكرماني ط ٢ سنة ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م - دار الوفاء للطباعة والنشر - مصر - المنصورة .
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان - الأردن .
- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الحسيني - منشورات مكتبة الحياة - بيروت - تصوير الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية .
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس .
- التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان - الأردن .
- تفسير ابن كثير طبع بدار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- تفسير أبي السعود .

- تفسير الثعالبي .

- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر .

- التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية .

- درة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ، ط ١ سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي .

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية .

- شرح التصريح على التوضيح - لخالد بن عبد الله الأزهرى - دار إحياء الكتب العربية .

- الطراز ليحيى بن حمزة العلوي - مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .

- على طريق التفسير البياني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان ، الأردن .

- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري - تحقيق أبي عمرو عماد زكي البارون - المكتبة التوفيقية - مصر .
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي ط ٥ - شركة فن الطباعة - مصر .
- الكشف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م .
- لسان العرب لابن منظور ، مصور على طبعة بولاق .
- لمسات بيانية - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان - الأردن .
- المصباح المنير للفيومي - المطبعة العلمية - بيروت .
- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء - مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .
- معاني النحو - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن .
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني - طهران .
- المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد - تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة - القاهرة ١٣٨٦هـ .
- ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي - تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت .

- من أسرار البيان القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن .
- النشر في القراءات لابن الجزري - مطبعة مصطفى محمد بمصر .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم البقاعي - دار الكتب العلمية - بيروت .
- النكت والعيون للماوردي - دار الكتب العلمية - بيروت .
- نيل الأوطار للشوكاني ط ٢ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ط ١ لسنة ١٣٢٧ هـ - مطبعة السعادة بمصر .

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
من سورة البقرة - آيات الصيام ١٨٣ - ١٨٦	٧
من سورة آل عمران - الآيات ١٩٠ إلى آخر السورة	٢٥
سورة المجادلة	٧١
سورة التغابن	١٥٧
سورة الانفطار	٢٢٥
سورة القدر	٢٤٧
سورة العصر	٢٥٩
أسئلة بيانية	٢٦٧
المصادر	٢٩٧
فهرس الموضوعات	٣٠١